

سِيرةُ التُرابْ

رواية

محمد فاروق الشاذلي

دار دوّن

سيرة التراب

الطبعة الأولى: يناير 2016

رقم الإيداع: 25758/ 2015

الترقيم الدولي: 978-977-6426-88-7

تصحيح لغوي: حسام حسين

تصميم الغلاف: كريم آدم

تليفون: 01020220053

E-mail: info@dardawen.com

www.dardawen.com

سيرة التراب

رواية

محمد فاروق الشاذلي

دَوِّن



دار دوِّن للنشر والتوزيع

إهداء

أبي الحبيب

للمرة الثانية أهديك كتاباتي.

ما زالت أفتقدك رغم مرور أثنى عشر عاما على رحيلك.

أبى الحبيب:

رحمك الله يا أبى

أبنائي الأحباء:

مالك ـ ياسين

أتمنى أن تنالوا شيئا من عظمة جدكم رحمه الله.

التغريبـة

(١)

تساقطت دموع (آشريا) على خديها العجوزين في صمت وهى تحزم ملابسها في الصُرة بظهر منحنٍ، وجسدٍ ضئيل، بينما الأصوات تتعالى خارج باب منزلها استعداداً للرحيل، كانت تشعر وكأن روحها تنساب من جسدها الذي أهلكته السنين، جالت ببصرها بين جدران المنزل الذي عاشت فيه منذ سنوات قاربت الخمسين، لم تستطع تذكر أشياء كثيرة حدثت لها بين جدران هذا المنزل، تُرى. هل أمروا الذكريات أيضا بالهجرة؟، أم أن الذكريات تختبئ بين الجدران؛ حتى لا ترحل معها، وتغادر المكان الذي نبتت فيه؟

أغمضت عينيها لعل الذكريات تعود إليها، أراحت رأسها إلى جدار حجرة نومها الذي شهد ليلتها الأولى في هذا المنزل، حينَ زُفت إلى (عمر جُلق) وهى بعمر التاسعة عشر.

ـ ليتك لم تمت يا (عمر) وتتركني لهذه اللحظة القاسية، لماذا لم تأخذني معك؟ أو بقيت معي؛ كي أريح رأسي على كتفك الآن وأنت تربت على خدي الغارق بالدمع؛ لتخبرني أن كل الأمور ستصبح على ما يرام، تبتسم وأنت تنظر إلى عيني وتضم يدي براحتك حتى أشعر بالطمأنينة والأمان، أستند علي ساعديك، وأنا أغادر هذا المنزل مثلما استندت عليهما وأنا أدخله.

طرقات عنيفة على باب المنزل، مصحوبة بأصوات جهورية قادمة من الخارج أجبرت (آشريا) على التوقف عن مناجاة عمر، ثم اقتحم سمعها صوت ابنها (أحمد) الغاضب الذي فتح الباب وهو يصرخ في وجه الطارق:

ـ الصبر.. الصبر يا أخي، الدنيا لن تطير.

طالعه وجهٌ عابس يعربد الغضب فوق ملامحه:

ـ هيا هيا، اسرعوا ستتحرك الحافلات حالا.

انصرف الوجه العابس من أمام (أحمد) ليهرول إلى دار أخرى، ويطرق بابها بنفس العنف والغلظة، شعر (أحمد) بالدماء تغلي في وجهه الأسمر، وجسده النحيف وكأن النيران قد اشتعلت في جلبابه النوبي الأبيض البسيط، فصرخ بأعلى صوته على باب الدار:

ـ منكم لله، قادر ربى ينتقم من الظالم.

على مقربة من دار (آشريا) التفت أحد الضباط باتجاه (أحمد) إثر سماعه للعبارة الأخيرة، أشار إلى جنوده أن يُحضروه، فهرولت

أجسادهم تتدافع لتلبية الأمر، خوفا من ثورته عليهم، فهم لا يحتملون نتائج غضبته أبداً، ولا يزال ما حل بأحد زملائهم في مركز التدريب عالقا بالأذهان كما كان هو معلقا من قدميه على باب العنبر يومين متتاليين، جذبوا (أحمد) بعنف نحو الضابط الذي جلس تحت الشمسية مرتديا نظارة سوداء باهظة الثمن، واضعا قدميه على كرسي آخر في تعالٍ. قصد أن يرسله إلى (أحمد) قبل أن يصل أمامه، رغم نحول جسده حاول المقاومة، لكن أياديهم كانت مدربة حتى لا يفلت منها، ألقوه أمام الضابط الذي نظر له نظرة استعلاء كرهها (أحمد) فوراً، تعمد الضابط أن يكون نعل حذائه باتجاه وجه الملقى أمامه، وفى تهكم واضح:

ـ من الذي تريد أن ينتقم منه ربك يا هذا؟

تعمد (أحمد) أن يقف بقامته الطويلة وينفض الغبار الذي علق بجلبابه قبل أن يجب باعتداد:

ـ أنا لست يا هذا، أنا (أحمد جُلق)، وأسأل الله أن ينتقم من الظالم، هل يغضب سيادتك هذا الأمر؟

اعتدل الضابط بعصبية واضحة، وتعمد أن يمنح نبرات صوته بعض الحدة ليرهبه ويشعره بسطوته:

ـ ومن هو الظالم الذي تدعو عليه؟

ـ مَن تسبب في تركنا لبيوتنا وأراضينا، أن تموت زراعتنا وتغرق مع بلدنا، بلد جدودنا وجدود جدودنا، مَن...

هب الضابط بجسده الضخم واقفاً وأمسك بتلابيب أحمد:

ـ ما الذي تقوله يا حيوان؟ سوف أ...

دفعه (أحمد) في صدره وهو يخلص نفسه من قبضته:

ـ أنا لست حيوانا، أنا إنسان مثلك، ويمكن أن أكون عند الله أحسن منك.

أصاب الذهول الجنود من هذا المشهد وقبل أن يستوعبوا ما حدث. كان الضابط ينهال صفعا على وجه (أحمد) وهو يصرخ بهستيريا:

ـ هل تمد يدك عليّ يا كلب يا ابن الكلاب، سأريك كيف تجرؤ يا ابن العاهرة، أقسم أنك لن ترى الشمس ثانية يا عبد، يا أسود.

كان أحمد يلف يديه حول وجهه، ورأسه ليحمى نفسه، لكنه سقط على الأرض رغم ذلك فبدأ الضابط يركل منه ما تصل إليه قدمه ذات الحذاء العسكري الثقيل، وسرعان ما تجمع عدد من أهالي القرية المستعدين للرحيل وحاولوا الاقتراب لتخليص (أحمد) من يد الضابط الذي استمر في ضربه وركله، لكن ضابطا آخر هرول نحوه وخلصه منه وهو يأمر الجنود باقتياده نحو سيارة الشرطة، كان الغضب واضحا على وجوه أهل القرية، ثم انتقل من الوجوه إلى الأيادي التي اشتبكت مع رجال الشرطة المتواجدين، كانت العصبية تسيطر على الجميع، النوبيون غاضبون من إجبارهم على الهجرة من أراضيهم وبيوتهم، ورجال الشرطة مغتاظون من مقاومة النوبيين

ومحاولتهم التعدي على السلطة التي تمثلت في رجال الشرطة، كاد الأمر يشتعل ويتطور حتى أخرج الضابط الأول مسدسه وأطلق عدة أعيرة في الهواء وهو يصرخ في الوجوه الغاضبة؛ كي ينفضوا من حوله، وبدأ عدد من الجنود في دفع المتجمهرين للانصراف، أسرع (محمد المهدي) يتحدث إلى الناس بصوته المبحوح لتهدئتهم، ملامحه الحادة، وعيناه الضيقة لم تفتح له طريقا إلى قلوبهم، وزادهم بعدا عنه تصرفاته الانتهازية، ورغم ما قرأه في الأعين من نظرات احتقار وإشارات البصق التي نالته. إلا أن ابتساماته الصفراء وكلماته المهادنة لم تتوقفا، وبعد معاناة انفض الجمع وكل منهم يحمل في صدره شيئا.

كان (المهدي) يعرف أن «ناسه» يكرهونه ويحتقرونه؛ لأنه ارتمى في أحضان الحكومة، وقَبِل بدور المبشر بالحياة السعيدة الكريمة بعد التهجير، رغم علمه، ويقينهم أن ما يقوله كذبا بَيّناً.

ما أن تحرك الجنود بـ(أحمد) إلى سيارة الشرطة حتى اندفعت زوجته (ونجى) خلفه، وهى تبكى على ما حدث له، حاولت أن تقترب منه، وهم يجروه في طريقهم للسيارة، لكن الجنود منعوها من الاقتراب وتدخل عدد من رجال القرية ليحولوا بينها وبينهم حتى لا تتعرض لما لا يرضون فتتأزم الأمور أكثر، تعثرت (ونجى) في ثوبها الجرجار الأسود، الذي ترتديه طوال الوقت فوق ملابسها، صرخت منادية على زوجها، والدموع تتسارع من عينيها:

ـ يا هُوى.. يا هُوى.

حرمتها التقاليد من مناداة زوجها باسمه حتى في مثل تلك الظروف القاسية، فسالت دمعات ساخنة على خديها قهرا، ارتعش جسدها الضئيل من الخوف على مصير زوجها، وكادت تنهار أرضا، لكنها حين لمحت ابنتها (دهيبة)، وولدها (مصطفى) يقفان على باب الدار أسرعت تلملم أشلاء نفسها، وتُظهر أمامهما تماسك. يتعارض مع اشتعال نفسها بالثورة، وفى النهاية اختفى (أحمد) عن نظرها، وتحركت به السيارة بعيداً عن القرية.

في هذه اللحظات جلست (آشريا) على باب دارها والحزن الصامت ينهش قلبها، ما بين الرحيل، وما حل بولدها على بعد أمتار منها، لم تقوى قدماها على حملها بعد أن أجلسها القهر، فاستندت إلى الباب بظهر أحناه الزمن لكثرة ضرباته الموجعة.

بعد ساعتين أُجبرت (ونجى) أن تصحب (دهيبة) و(مصطفى)، وتحمل ابنها الرضيع (إبين) نحو الحافلة استعدادا للرحيل، ولم تنسَ أن تطوي الغضب بين الضلوع، وتصر أن تحتفظ في الذاكرة بصورة ما حدث لزوجها أمام عينها. كانت ترحل بجسدها فقط، وتحتفظ بالنوبة بين ضلوعها. أما قلبها فقد تبع (أحمد) دون أن يدرى إلى أين، (آشريا) تسير خلفها في وهن واضح، طأطأ الحزن رأسها، ولم تتوقف الدموع عن الانهيار الصامت لحظة واحدة. صعدت الحافلة وحرصت أن تجلس جوار النافذة حتى تظل نظراتها متعلقة بالقرية التي تبتعد بسرعة، وتصر الدموع أن تحجب صورة اللحظات

الأخيرة، صيحات الغضب المكتوم كانت تفلت من حناجر الرجال بين حينٍ وآخر، بعضهم آل إلى ما آل إليه (أحمد جُلق) من قبل حينما جاهر بغضبه، وبعضهم آثر أن يطوي ثورته داخل القلب، دمعات كثيرة انسابت على وجنات النساء، وآلام كبرى وجدت لها سكنا دائما في وجدان الجميع.

لمحت (آشريا) جزء ضئيل من نافذة دار (الشيخ عثمان) يُغلق، تعجبت، من ما زال هناك في بيت ابن خالها، تلفتت حولها وأمعنت النظر بين ركاب الحافلة حتى وقع بصرها على زوجته، كان بكائها الصامت حارا أكثر من غيرها، لم يكن بكائها للرحيل عن الأرض فقط، بل كان لفراق البشر أيضا، أعادت النظر نحو دار (عثمان)، وتمنت لو كانت لديها الشجاعة الكافية لفعلت مثله، كان الرجل الأقرب إلى روحها من بين عائلتها، أغمضت عينيها، وأسندت رأسها على حافة النافذة لتعيد محاولة إجبار الذكريات على العودة إليها من جديد.

تحسست كيسا أبيض صغيرا وضعته في صرتها؛ كي تتأكد أنها لم تنسه في الدار المهجورة.

حل الظلام سريعا وكأن الشمس قصدت أن تتوارى خجلاً مما جرى لهم، وفى ظلام الحافلة ولدت أغنية حزينة تتمنى العودة إلى أرض الذهب.

* * *

(٢)

في ظلام الليل جلست (ونجى) على ظهر المركب الشراعي الذي أكمل رحلة التهجير بعد الحافلة، حدقت في صفحة النيل السمراء كبشرتها، ولحظات القبض على زوجها تحجب عنها أي صورة أخرى، ألقت رأسها للخلف تنظر إلى النجوم اللامعة فوقها، ذكَّرها لمعان النجوم بأسنان (أحمد) حين ابتسم لها للمرة الأخيرة قبل ليلة واحدة، احتضن قلقها بين ذراعيه؛ فألقت رأسها على كتفه في استسلام، داعبها قائلا:

- قد تكون هذه أول مرة يصدق فيها (محمد المهدي)، وتكون الحياة في القرى الجديدة أفضل.

ابتسمت وهى تجيبه:

- لو أنه صدق فلن نكون في حاجة لصدقه، لأنه إن فعل لكانت هذه من علامات القيامة.

تبسم من دعابتها بشفتيه فقط، دون أن تبدو أسنانه كعادته حينما يبتسم، لكن قلبه كان يغرق في بحر القلق.

بكاء (إبين) هبط بها إلى أرض الواقع فغادرتها الابتسامة فورا، أرضعته ليصمت، ويعود إلى النوم، ربما كان النائم الوحيد على ظهر المركب هذه الليلة، فالخوف والقلق تمكنا من حرمان سلطان النوم من رعاياه، لم تكن (ونجى) في حاجة لاستكشاف ذلك، فالنهنهات، والهمسات تتناثر في كل ركن، أكوام من البشر تكدست بجوار بعضها على سطح المركب الشراعي يبحرون نحو المجهول من الأيام.

استند الصبي (مصطفى) على أحد الأجولة المطروحة على سطح المركب بقامته الطويلة وجسده النحيف مثل أبيه (أحمد جُلق)، يتذكر اللحظة التي رأى فيها أباه أثناء جره نحو سيارة الشرطة مع كثير من الإهانات والركلات واللكمات، سالت دموع ساخنة على وجهه الصغير، الذي شاخ منذ تلك اللحظة، رغم سنواته الأربعة عشر، كان يضرب الأجولة بظهره في تسارع، ماج صدره بكثير من الغضب لهذه الذكرى؛ حتى صرخ، فقتل صمت الليل بصرخته الحادة، وقتل معها الهمسات التي كانت تسرى بخجل منذ قليل، هرولت (ونجى) إلى ولدها على أثر هذه الصرخة فاحتضنته، وربتت على ظهره بحنان بالغ، ما أن مست رأسه صدر أمه الحنون حتى انفجر باكيا بحرقة، لكنه سرعان ما كفكف دمعه، فالرجال لا تبكي، لكنهم يحملون المسئولية في صمت وجلد، لا يسمح لهم برفاهية البكاء فهي تخص النساء وحدهن، الرجال في النوبة ولدوا؛ كي يكونوا رجالا، رفع رأسه إلى أمه بحزن:

ـ إلى أين أخذوا أبى يا واندى؟

حاولت أن تغير الموضوع فتبسمت في وجهه:

ـ إنها المرة الأولى التي تقول فيها واندى بدلا من أمي.

أصر أن يعرف إجابة سؤاله، فسألها من جديد، وعيناه تلمع ببريق من الحزم:

ـ متى يعود أبى؟

ـ لا تخاف يا صغيري، غدا يعود بالسلامة إن شاء الله.

قالتها (ونجى) بلهجة أرادتها أن تكون مطمئنة، لكنها لم تكن مقنعة حتى بالنسبة لها.

ـ لم أعد صغيرا بعد الآن يا واندى، لقد أصبحت رجلكم منذ لحظة رحيل أبي.

كان التصميم يملئ صوته، وعيناه تحملان بريقا تراه (ونجى) للمرة الأولى في ولدها، تبسمت وهى تضمه مرة أخرى إلى صدرها، وللمرة الأولى منذ القبض على (أحمد) تشعر بشيء من الطمأنينة وهدوء في نفسها التي صاحبت القلق منذ الحصر الذي أجـَّرته الحكومة لأهل النوبة تمهيدا للتهجير.

تبسمت (آشريا) وهى تسمع كلمات حفيدها وتلمح بذرة الرجولة تطرح نبتتها في هذه الظروف القاسية، كانت تنوى إغماض عينيها لتنعم ببعض النوم، لكنها أدارت وجهها نحو الشرق لترى لحظات مخاض النهار الجديد، تفاءلت خيرا بانتصار ضوء الشمس على فلول ظلام

الليلة الأحلك في حياتها، وكانت تأمل أن يحمل الغد خيرا لم ينجح الأمس في حمله إليهم.

مع غزو الشمس لوسط السماء، رست المركب الشراعي في المرفأ، وعلى البر، كانت حافلات أخرى تنتظر لتستمر الرحلة الشاقة إلى القرى الجديدة.

(٣)

انتهى الحال بـ(أحمد جُلق) معصوب العينين في معتقل الوادي الجديد، مع عدد قليل من الرجال من مختلف قرى النوبة وقبائلها، فلم يكن أهل النوبة معترضين على التهجير، بل أن الحكومة استعانت بالمتعلمين منهم؛ ليساعدوا أهلهم في إنهاء إجراءات التهجير، لكن ما آتى بهؤلاء إلى المعتقل لم يكن الاعتراض، أو المقاومة، بل كانت ظروفا سيئة، مثل مشكلة (جُلق) مع الضابط المتعالي.

استقبلهم زبانية المعتقل بما يعرف بـ(حفلة التشريفة) ذلك التقليد المتبع في المعتقلات. بإهانة الوافدين الجدد، وجرح كبريائهم مع كثير من الركلات واللكمات التي تنهال على الكرامة، قبل أن تصل إلى الجسد لتترك بصمتها عليه، الشتائم تتسابق؛ لتشعرهم بالمهانة والحقارة مع الخطوات الأولى في المكان، لسعات العُصي الخيزران تشق الجلد، فتبتعد

عنه مُحملة بدماء المظلومين، حتى وصلوا إلى الزنازين فاقدين لجزء من دمائهم، وكثير من كرامتهم.

دخل (أحمد جُلق) إلى الزنزانة وقلبه يدمى، لم يكن يأبه في الحقيقة للدماء التي تسيل من وجهه أو جسده، قدر ما كان يهتم بجرح كبريائه وكرامته، وما لاقاه من ذل وإهانة. كانت تدور في ذهنه كلمات شيخه حينما درس بضع سنوات في الأزهر الشريف:

ـ «كل طاغية يدوم طغيانه بالجهل والإهانة وصمت الناس يا ولدى»،

لكنه لم يرى الزعيم كطاغية، هو الذي حرر مصر من الاحتلال، أصدر قوانين الإصلاح الزراعي، أمَّم قناة السويس، وها هو يبنى السد العالي؛ ليحمى مصر من الفيضان... لكنه طردنا من منازلنا، حرمنا من أراضينا، سلب منا ماضينا... لا تكن متحاملا يا (أحمد) على الرجل، السد العالي خير كبيرٌ للبلاد، وقدرنا أننا تواجدنا في المكان الذي غمره الماء... ألم يكن أولى به أن يعاملنا بمثل الكرم الذي نعامله به، ألم نتنازل له عن أراضينا وبيوتنا... لكن الرجل بنى لنا مساكن بديلة ومنحنا أرض جديدة... لا تضحك على نفسك يا (أحمد) فهل تلك المباني تسميها بيوتا، لقد كانت أماكن حيواناتنا أوسع وأفضل... ومن أين لك أن تعرف؟، أنت لم ترَ البيوت بعد، ولم تزر القرى الجديدة حتى الآن... كل من رآها أخبرنا بذلك... وما الحل الذي تراه؟، هل يستغني الزعيم عن هذا المشروع من أجلك...

بالطبع لا، لكني كنت أتمنى ما هو أكثر آدمية، ما هو أكثر احتراما لتضحياتنا، خاصة وأن هذه المرة هي الرابعة بعد التهجير الخاص بخزان أسوان وتعلياته المتكررة... يا رجل لا....

انتفض (أحمد) وطارت من رأسه الأفكار فور أن لامست يد ما كتفه، التفت في سرعة ليجد وجها ممتلئا بآثار الضرب والتعذيب، يبتسم له في حنان ويسأله:

ـ ما اسم الكريم؟

خرج صوت (أحمد) مكدودا وحزينا:

ـ (أحمد جُلق).

ـ تشرفنا، من أين يا ولد عمي؟

ـ النوبة، قرية اسمها الدَكة.

تبسم في طيبة:

ـ أحسن ناس يا عم (أحمد).

ثم ربت بيمناه على صدره:

ـ أخوك (عبد الرحمن) من الجيزة.

ـ تشرفنا يا أخ.

ـ تُرى ما الذي أوقعك في يد الظلمة؟

ـ كلمة حق.

بدا الأسى على وجه (عبد الرحمن):

ـ أغلب من في هذا المعتقل وغيره من المعتقلات دخلوه بسبب كلمة حق، أم أنك تصدق أننا متآمرين لقلب نظام الحكم حقا؟ وأننا نحارب الثورة التي ما زالت وليدة منذ أثنتا عشر عاما ولم تبلغ الفطام بعد، هل حقا نحارب الثورة التي كانت حركة، ثم كبرت لتصبح ثورة؟، ولماذا يصفوا معارضي سياساتهم بالخونة، وكأنهم اختزلوا الوطن في وجهة نظرهم وحدها؟

اتبع جملته بضحكة أرادها ساخرة لكن الحزن داخله أبى إلا أن يغلفها، زفر (أحمد) وأراح رأسه على الجدار مسبلا جفونه على أعين حزينة؛ تخشى بكاء القهر. كان يدرك أن دموع الرجال حينما تفلت منهم رغما عنهم لا تريح، بل هي تزيد الجرح اشتعالا، انسحب (عبد الرحمن) من جوار (أحمد) مؤثرا تركه مع أفكاره، أو ربما يتمكن من النوم لعله يرتاح قليلا.

كان وجه أمه (آشريا) أول من رآه في حلمه، حزينة، قلقة، وكانت أيضا غاضبة، تجلس أمام باب الدار، وكأنها تنتظر شيئا ما، ولده (مصطفى) يقف أيضًا أمام الدار، ما أن رأى والده حتى هرول نحوه والتصق به، ربت (أحمد) على رأس ابنه في فرح، ثم جرى الولد نحو الدار ليخبر أمه بعودة أبيه، أما الصغير (إيبن) فكان يزحف جوار جدته، سار (أحمد) في اتجاه ولده، لكن المسافة لم تتقلص بينهما. فكلما اتجه إلى الصغير، شعر وكأنه يبتعد، زحف (إيبن) حتى وصل إلى حجر جدته، فجلس فيه، ما زال (أحمد) يحاول الاقتراب والمسافة ثابتة، صوت صرير باب ما يُفتح، تلفت حوله، لكنه كان وحيدا في صحراء مجهولة.

فزع من نومه حينما شعر بالماء البارد يغمره، ليجد حراس المعتقل يلقون بالماء على المعتقلين النائمين، ثم اقتادوهم إلى خارج الزنازين.

في الخارج كان الزبانية ينتظرونهم، جردوهم من ملابسهم ثم دهنوا أجسادهم بزيت نفاذ الرائحة، كانت نظراتهم بها كثير من الغل وكثيرا من الجمود، لم يدرى أي من المعتقلين ما سبب هذا الزيت، حينما انتهى حراس المعتقل غادروا المكان في سرعة وتركوهم وحدهم، بعد لحظات قليلة تناهى إلى صوت (أحمد) زمجرة مخيفة، لم يفهم معناها ولا كنهها في هذا المكان، حتى فُتح أحد الأبواب لتخرج منه مجموعة من الكلاب البوليسية الجائعة، مهرولة نحو الأجساد العارية للمعتقلين، جرى كل منهم في اتجاه محاولا الفرار من الأنياب الحادة، والمخالب المخيفة التي تطاردهم. كانت الكلاب مُدربة جيدا، فهي تجرح، ولا تقتل، تُفزع بوحشيتها كل من تناله؛ حتى تسيل قطرات البول في الملابس، تعالت الصرخات والأنات من كل اتجاه بساحة المعتقل، تساقط عدد من الرجال مغشيا عليه خوفا أو تعبا أو قهرا؛ حتى طالهم جميعا السقوط، لم يطل هذا السقوط الأجساد فقط، بل طال الكبرياء أيضا، صفيرا رفيعا جعل كل الكلاب تصمت، وتتجمع عند الباب الذي أتت منه وتخرج في صمت، سالت دماء الرجال في كل شبر من الساحة وخارت معه قواهم، وانسكبت عزائم البعض تشربها رمال الظلم في أرض ساحة المعتقل، حتى الأنين لم يقدر عليه أي منهم، تُركوا تحت لهيب الشمس الحارق، لم تكن هي نفس الشمس التي تطل على القرى والنجوع،

كانت أكثر حرا، أكثر قسوة، وكأنهم دربوها لتشاركهم تعذيب الرجال. بعد ساعة بدأ عدد من الرجال يتحامل على نفسه ويقف من جديد، وكأنها كانت إشارة للزبانية. فقد خرج عدد منهم يحمل أوانٍ بها ماء، ألقوه على الأجساد المجروحة لتزيد جروحهم اشتعالا، فقد كان الماء مخلوطا بالملح، أو أنه كان ملحا معجونا بالماء.

(٤)

خطا (مصطفى) خطواته الأولى في القرية الجديدة مع هبوطه من الحافلة، جال ببصره في المكان، اتخذ خطوتين إضافيتين للأمام ثم توقف، أحنى رأسه فصدمت عيناه الرمال الصفراء الخشنة، لم تعتد عيناه وجود الرمال داخل القرية، وإنما طمي النيل الدافئ الناعم، لم يرَ شاطئ النيل، فقد كان بعيدا كيلومترات، في منزله القديم كان النيل جاره، أما هنا فالجيرة للون الأصفر فقط، اقتربت منه (دهيبة) ووضعت يدها على كتفه وسألته في براءة:

ـ هل هذا هو المكان؟

أومأ برأسه في ملل أن نعم، تلفتت حولها ثم سألته مرة أخرى:

ـ ما اسم قريتنا الجديدة يا (مصطفى)؟

أجاب ساخرا:

ـ اسمها الدَكة، مثل القرية القديمة، وكأن هذا سيجعلهما متساويتين.

لم تفهم (دهيبة) سخرية أخيها، لكنها عادت تسأله من جديد ببراءتها المعهودة وكأنها اعتادت الأمر وتكيفت معه في سرعة رغم الحزن البادي على ملامحها:

ـ أين هو منزلنا الجديد؟

أشار بيده إشارة مبهمة، وصوته يملئه الغضب:

ـ لعله هذا، أو ذاك، لم يعد هذا مهما على أي حال.

اقتربت منهما (ونجى) وهى تسأله والقلق عليه يمتزج بصوتها:

ـ لماذا لم يعد ذلك مهما يا ولدى؟

نظر إلى عينيها مباشرة وبصوت قوى أجاب:

ـ لأن أبى ليس موجودا ليسكنه.

تركهما وابتعد مع باقي أهل القرية يتبعون موظف الحكومة الذي حمل بيده كشوف الأسماء التي تحدد بيت كل أسرة، تبعته (آشريا) في تؤدة، بعد عدة خطوات نظرت للخلف لتجد (ونجى) تحمل (إيبن) وتقف في مكانها ولم تتحرك بعد ولو خطوة واحدة، عينها زائغة وفمها فاغر لا تستوعب مشاعر ولدها، بينما (دهيبة) هرولت خلف (مصطفى) تبحث في جواره عن الأمان الذي رحل مع رحيل (أحمد)، البيوت متراصة في خط مستقيم تكاد تكون متلاصقة، نفرت منها (آشريا). فلقد اعتادت أن تتباعد البيوت احتراما لحرمة قاطنيها،

والتي تراصت في الغالب في شكل نصف دائرة تواجه مجرى النهر العتيق، لكن أين هو النهر الذي اعتبروه منذ الأزل شقيق النوبة وحاميها.

مـع حلـول المسـاء كانـت (ونجـى) تبـدأ في ترتيـب حاجياتهم في البيـت، تأملـت البيـت مليـا بعـين دامعـة، ثـلاث حجـرات، لا تتعدى مسـاحته مائة متر بعد أن كانت دارهم تزيد مسـاحتها عن الأربعمائة متر دون احتساب مكان مبيت الحيوانات، لا يوجد صحن للبيت، أين يمكن لـ (أحمد) أن يزرع نخلتهما الجديدة حين يعود، بيت النوبـة القديمة حـوى نخلتين في صحنه، الكبـيرة منهما زرعها (عمر جُلق) يوم زواجـه من (آشريا)، والصغيرة زرعها (أحمد) يوم زواجه منهـا، لـن يتمكن (مصطفى) مـن زرع نبتة زواجه في هـذا الدار ولا في أي دار أخـرى. في الخارج نشـب عدد من المشـاجرات بين رجال القرية ورجال الحكومة، ليسـت هـذه منازلهم، لم تكن منازل نوبية، لم تكن هذه القرى تنتمي لنفس النبع الذي شربوا منه منذ فجر التاريخ، فقُراهم كانـت تلامس النيل، أما هذه القـرى فتحاصرها الصحراء، هنا لم يكن النسيم عليلا، لم يتنازل عن حرارته قربانا لجوار النيل، هنا الهـواء جاف، حار، لا يسـتقر في الصدور، هـواء النوبة كان يمنحهم حياة ويحلق بالنفوس في رحاب السـلام والهدوء، أما هواء الصحراء فيثقل الروح، تقتل حرارته سـماحة متنفسـيه، ويزرع بدلا منها توترا وعصبية.

اسـتلقت (آشريـا) على سريـر صغير مصنـوع من جريـد النخل

يسمى «العنجريب» وآلام الشيخوخة تختفي تماما أمام آلام روحها المكسورة، ونفسها الحزينة. تتذكر مرة أخرى خطواتها الثقيلة لحظة خروجها من دارها، كانت تشعر وكأن الشلل سيقتنص قدميها عند باب الدار؛ فلا تتمكن من الخطو خارجه أبدا، في الخطوة الأولى أدمى قلبها ما حدث لولدها (أحمد)، وفى الخطوة الثانية فجعها فراق ابن خالها (الشيخ عثمان)، يبدو أن خطواتها خارج هذه الدار ستصاحب الفقد دائما. ما زالت تأمل أن تعود إليها ذكريات أيامها في الدار المهجورة، لكن يبدو أن الذكريات كانت أكثر وفاءا للمكان من البشر، فقد رحل البشر، وبقيت الذكريات هناك تتعلق بالجدران وتستلقي في جوار النهر.

* * *

لم يحتمل الرضيع (إبين) قريته الجديدة أكثر من ثلاثة أسابيع، حتى الرضيع لم يطب له الرحيل فمرض بإسهال حاد وكأن جسده الذي نبتت بذرته في أرض النوبة السمراء لم يحتمل نقل جذره إلى الصحراء، مرض (إبين) ليصيب (ونجى) بسهم جديد في قلبها الذي لم يعد به مكان آخر للجروح، فلا يوجد هنا مستشفى أو مستوصف، ومبنى الوحدة الصحية ما زال مغلقا بقفل غليظ، ولم يعمل بعد، كان ولا بد أن تذهب به إلى مدينة «كوم أمبو» التي تبعد كيلومترات طويلة عن قرى «ناصر النوبة»، لم تكن تلك المشكلة

الوحيـدة، هناك أيضا مشـكلة النقـود، كانت المبالغ التـي ادخراها - استعدادا للحياة الجديدة بعد الرحيل - في جيب جلباب (أحمد) لحظة القبض عليه، أطرقت رأسـها قليلا ثم عزمـت أمرها، ذهبت إلى دار (الحـاج محمد الطاهر) ابن عم أباها، تعرف أن العجوز ليس ميسـور الحال، لكنه لن يتركها دون حل أو مسـاعدة، فهو الآن أبيها الجديد، وهـى تعلـم مكانتها عنـده، عـادت مـن دار (الحاج محمـد) مجبورة الخاطـر، حملت رضيعهـا وأوصت (مصطفى) خـيرا بجدته وأخته، رحلة أخرى شـاقة على نفس (ونجى)؛ كي تذهب إلى مستشفى كوم أمبو في الحافلـة الحديدية القلب، الحافـلات لا تعرف حنو المراكب، والشـمس تصب لهيبا على الطريق، والسائرين فيه، عانى الصغير من اشتداد المرض أثناء الطريق، ليشترك المرض مع عناء السفر، ثم عانى من جديد إهمال المستشفى الفقير.

في أروقة المستشفى تضطر أن تلقى كرامتك أرضا حتى تحصل على حقك في العلاج، تلك هي ضريبة الفقر، وهذا هو ثمن الجهل الذي يسيطر على المكان، ملامح الصغير التي ينتهكها المرض تؤلم (ونجى) وتوجع قلبها، مع نهاية الرحلة ترك (إبين) أمه وحدها تعانى الفقد، وكأنها تنقصها معاناة جديدة.. تغادر روحه البريئة جسده الصغير بين يدي الأم العاجزة عن إنقاذ الرضيع، فيخلق انسحاب روحه نقصا جديدا في روحها.

لم يكن الصغير (إبين) أول من يدفن في مقابر القرية الجديدة، فقد سبقه أطفال آخرون يبدوا أنهم رفضوا أن تنموا أجسادهم بعيدا

عن أرض الأجداد حتى أن أهل القرية سموا هذه المقابر (مقابر الحضانة)(*)، ولم يكن الصبي (مصطفى) أول من يخسر سنوات صباه، ويضطر أن يحمل المسئولية مبكرا، عرض على أمه أن يترك المدرسة ليعمل ويوفر مصدر دخل للأسرة التي عاشت على اللحم المقدد الذي صنعته (آشريا) قبل الرحيل. قابلت أمه رغبته بعاصفة من الغضب، وفى النهاية قتلت الحوار بصرخة في وجهه:

ـ لقد أراد لك (أحمد) أن تتعلم، وسوف يكون له ما أراد.

كان اسم الأب الغائب هو السهم الذي نفذ في قلب رغبة (مصطفى) فأزهق روحها فورا.

منذ رحيل (إبين) أصبحت (ونجى) عصبية وحادة المزاج. لم تتنازل عن دمعة واحدة من عينيها رغم شدة الحزن الذي يسكن قلبها، بينما صمتت (آشريا)، ولم تتكلم بعدها حتى ظنوا أنها فقدت النطق، ثم تمكن منها الضعف والمرض بعد أن توقفت عن مقاومة القهر والحزن وانكسار القلب. مع احتضار الشمس ذات يوم تحاملت (آشريا) لتقوم إلى صرة تفتحها للمرة الأولى منذ التهجير، تُخرِج منها جلبابا وعمامة وحذاءا جلديا لامعا، إنها الملابس التي ارتداها (عمر) حينما صلى في مسجد الحسين للمرة الأولى وأقسم ألا يرتديها بعد ذلك إلا عند زيارة آل البيت، وقد أبر بقسمه ولم يخالفه حتى رحيله، وفى المساء نظرت نحو (ونجى) في محبة بالغة وهى تقول:

(*) حقيقة.

ـ انقليني إلى جوار النافذة يا (ونجى).

نظرت نحوها (ونجى) ووجهها يشرق للمرة الأولى منذ شهور، علت شفتيها ابتسامة سعادة حقيقية، وهرولت نحو (آشريا):

ـ حمدا لله على السلامة واندى.

ـ ضعيني عند النافذة وافتحيها على مصراعيها، أريد أن أرى السماء، لو كنا في دارنا لطلبت أن أنام في صحنه فلا يحجبها عني سقف.

أسرعت (ونجى) تلبي طلب حماتها (آشريا)، نادت على (مصطفى) و(دهيبة) ليساعداها، وحين نظرت (آشريا) إلى السماء ورأت النجوم أخيرا ابتسمت لهم في حنان، قبّلت (ونجى) وربتت على كتف (مصطفى) وخد (دهيبة):

ـ اتركوني لأنام.

تأكدت من وجود الجلباب والعمامة والحذاء بجوارها، تأكدت أيضا من وجود الكيس الأبيض، احتضنت الجلباب لتشم فيه رائحة (عمر) ثم حدَّقت نحو النجوم وابتسامتها تسكن شفتيها، فقد عادت الذكريات إليها أخيرا، استطاعت أن ترى أيامها ولياليها في الدار المهجورة، كل لحظات سعادتها وفرحها عادتا إليها، استطاعت أيضا أن ترسم ابتسامة خجلى على وجهها أخيرا حين تذكرت موضع قبلتها الأولى، ساعتها قبضت من شاطئ النهر قبضة من التراب الأسمر النيلي، ووضعتها في طرف طرحتها البيضاء، وطوتها مرتين،

ثم قبضت عليها بحرص، سألها (عمر) متعجبا:

ـ ما هذا؟

نظرت بعيدا، وهى تداري وجهها بطرف الطرحة:

ـ أحب أن يصحبني هذا المكان أينما رحلت.

ضحك منها وهو يسألها من جديد؟

ـ ولم؟

نظرت إلى عينيه في حب:

ـ حتى لا أنسى هذه اللحظة، ولا هذا المذاق.

قبيل الفجر رأت (عمر جُلق) يقف بين النجوم في جلبابه وعمامته بلونيهما الأبيض الصافي، وهو يحمل الصغير (إيبن) ووجهه كبدر السماء، يبتسم لها ويمد يده فمدت يدها نحوه، رعشة خفيفة في أطراف الأصابع، ثم سقطت يدها إلى جوارها، لمحتها (ونجى) لتعتصر يد الحزن قلبها مرة بعد أخرى، حتى لم يعد قلبها يعرف إلا الأحزان.

(٥)

انتفض (أحمد) من نومه في الزنزانة الضيقة العفنة، قلبه ينبض بعنف، أنفاسه تتلاحق، قطرات العرق الباردة تتسارع على جسده؛ مخلفة ورائها قشعريرة، كان يحلم أن أباه (عمر) قد أخذ أمه (آشريا) وطفله (إبين) ورحل، انقبض قلبه؛ لأنه لم يودعهما، تسللت الدموع من عينيه حتى ابتلت لحيته التي طالت في المعتقل، لم تكن هناك نافذة تخبره في أي وقت هو، الظلام يسكن مقلتيه منذ أودع الزنزانة الانفرادية قبل شهرين، فقد كانت إرادته قوية لا تنكسر، وعناده صلب لا يلين، لم يجد الزبانية عليه سلطانا، فنسوه في تلك المقبرة الزنزانة، كاد يبكي مرات عدة، لكن صورة (مصطفى) التي لا تفارق مخيلته تمسك دمعه في كل مرة، كلما شعر بضعف، أسرع بالتماسك وكأن ولده موجود فعلا أمامه، فيرفض (أحمد) أن يبدو ضعيفا أو مكسورا أمام (مصطفى). حينما يُغلَق عليه باب الزنزانة يجد يد (ونجي) تداوي جراحه، وحضنها يلملم شتاته،

ويمنحه قوة جديدة، الشيء الوحيد الذي أثقل قلب (أحمد) وأضعف قوته هو غياب (آشريا) عن أحلامه، كان يستعطفها في ظلام الزنزانة أن تأتى إليه، يسأل (ونجى) عن أحوالهم ويوصى (مصطفى) خيرا بأسرته.

ينظر إلى (مصطفى) في ظلام المعتقل:

ـ استحلفك بالله يا ولدى أن تنزع صورتك من عقلي، أن ترحل كلماتك من أذني، فأنا أريد أن أبكي، أن أحني رأسي مثلما فعل الجميع، أن تنكسر هامتي ذلا للسجان، حتى ارحم نفسي من قسوة التعذيب، علمني شيخي بالأزهر ألا أنحنى لغير الله، لكن الطاغية يا ولدى يريد أن يعلمني أن أحنى رأسي حين يرتفع السوط، أخبرني شيخي ـ يوما ـ أن الخوف من غير الله، استهانة بقدرة القدير، لكن السجان زرع في نفوسنا الخوف حتى من صوت الأبواب وهى تفتح، فمع كل تحرك للمزلاج يأتي لونا من العذاب، أخبرني أبى أن الموت يأتي في العمر مرة، لكن زبانية الطاغية يقربونني من الموت في اليوم ألف مرة، أنا لا أخشى الموت، لكن اقترابه ثم ابتعاده أرهق روحي واتعب نفسي، انزع صورتك يا ولدى من عيني؛ حتى يتمكن الدمع من الفرار، لكن يبدو يا ولدى أن هاماتنا خُلقت مرفوعة ولا تنكسر إلا بخروج الروح، يبدو أن الرأس وضعه الله في الأعلى لأنه لا يرضى له أن يكون في الأسفل أبدا، إلا راكعا وساجدا للخالق وحده، فلتبق إذن صورتك يا ولدي، وليبقَ كذلك صوتك، فسواء بقيت أم رحلت، لن أتعلم أبدا أن أحنى رأسي لغير الله، لن أتعلم أبدا أن تخرج دمعاتي خوفا، لن أتعلم أبدا أن يرتعش صوتي ذلا ونفاقا.

ـ يا أبت لا تفعل شيئا لا يرضيك، لا تفعل شيئا لا يُرضى الله، يا أبت فلتصرخ في وجه الطغيان، لا تصمت أبدا.

ـ فلنصرخ معا يا ولدى غضبا، فصرخة الغضب في وجه الطاغية تزلزل عرش طغيانه، ولو كان صراخ رضيع، يتزلزل ملكه، ولو قام لألف عام، تتساقط دولته من صرخة واحدة، يفر رجاله ويختبئون في لحظة واحدة، فلنصرخ معا يا ولدى في وجه الظلم.

(٦)

في ظلام الليل وكعادته كل مساء يخرج (الشيخ عثمان) ليتجول في أنحاء قريته المهجورة، يرتدى جلبابه القطني الأبيض، وعمامته المهندمة، يمسك بعصاه ويصحب كلبه، يتجول بين بيوت القرية التي اعتنقت ديانة الصمت بعد رحيل الناس، لا ينسى أبدا أن يبصق عند الباب حين يمر بدار (محمد المهدي)، يتمهل حين تخطو قدماه أمام الكُتّاب ويتمتم بالفاتحة على روح (الشيخ عبد الله) فعلى يديه حفظ كتاب الله، تعلم منه أن المظلومين سيساقون إلى الجحيم إذا صمتوا أمام الظالم وأن ملائكة العذاب ستخبر المستضعفين أن سبب تعذيبهم كان صمتهم، يتذكر يوم دخل بصحبة أبيه دار عمه (محمود) ليطلب يد (نعمة)؛ فتدمع عيناه، كانت يوم التهجير تُقبّل قدميه؛ كي يرحل معها، لكنه تركها تخرج من الدار مكسورة الخاطر، مجروحة الفؤاد

لأول مرة منذ تزوجها، يستلقي عند النهر، يتأمل القمر والنجوم، تلك النجمة هناك عند الجنوب الشرقي، ظنه أنها فوق الكعبة، هفت نفسه دوما لزيارة مكة، أن يخطو فوق تراب شهد موضع خطو النبي، أقسم يوما لـ (الشيخ عبد الله) لو قدر له أن يذهب للحج ألا ينتعل خُفّيه في المدينة أبدا، لعل حفنة من تراب مست القدم الشريف يوما أن تمس قدميه فيأمن شيء منه عذاب جهنم، يُلقى بحجر في النهر الصامت، فيثير دوائرَ عدة، لكن الماء يبتلعها دوما، يتأمل دوائره وهي تخبو، هل يخبو يوما غضبه ويبتلعه ماء النهر؟

عند الفجر يرحل نحو المسجد، يؤذن فيه بصوت عال، وكأنه يرغب أن يصل صوته لرفاق الفجر اللذين رحلوا، في كل صلاة يذهب للمسجد ويؤذن في القرية الخاوية، يؤم صلاة بلا مصلين، يبكي حين لا يسمع (آمين) تتردد في فضاء المكان بعد خشوع الفاتحة، يتألم قلبه حين يسلم فلا يسمع (تقبل الله)، تبحث أذناه عقب كل صلاة عن صوت التسبيح أو التكبير، مع شروق الشمس ينتظر نساء القرية عند النهر وهم يملئون الماء، لكن جرار القرية جفت أو كُسرت أو رحلت، يعود إلى داره يدير مؤشر المذياع ليعرف متى تغمر قريته الماء، يتناول مصحفه بوجل، يقرأ فيه بخشوع، ويسأل نفسه عقب كل قراءة، هل يتقبل الله مني؟، يدعو الله أن يغفر له، يؤمن أن بقاءه في القرية مقاومة للظلم، يؤمن أيضا أن رحمة الله ستناله؛ لأنه مات دون أرضه، ألم يحفظ يوما على يد (الشيخ عبد الله) «من مات دون ماله فهو شهيد»، هل ينال مقام الشهادة؟ أم يناله عذاب أبدي؟، هل يموت دون ماله؟ أم يموت دون أوهامه؟.

الليلة يصلي الفجر لآخر مرة، فغدا تغمر قريته الماء، لو أغلق باب الدار هل يحميه من تيار الماء؟، هل يصمد داره في وجه الطوفان؟ ستكون مصيبة لو أن الماء جرفه نحو الشمال، هل رفض الهجرة حيا ليجبره السيل على الرحيل ميتا؟، لن يقبل أبدا أن يرحل عن هذه الأرض، سيموت في هذه الدار، وسيبقى جثمانه فيها، بحث عن حبل غليظ، ذهب نحو النخلة في صحن الدار، نبح الكلب بصوت عالٍ نحو الجنوب، خمش الأرض بمخالبه، دار حول (الشيخ عثمان) وتمسح في جلبابه، احتضنه (عثمان) وربت على ظهره، ترقرق الدمع في عينيه:

ـ سامحني يا صديقي، لن تبقى معي في هذه اللحظات، فلترحل أنت، قد آن أوان فراقنا.

جرَّه نحو الخارج، واحكم غلق الباب، نباح الكلب لم ينقطع، حاول العودة إلى الداخل، صوت مخالبه التي تغالب المدخل الخشبي العتيق لم ينقطع؛ حتى رقَّ قلب (عثمان) ففتح له وأدخله من جديد:

ـ حتى أنت ترفض الرحيل؟، هل ترغب حقا في الموت؟ ألا تخشى أن يجرف جيفتك الماء بعيدا؟

من جديد نظر الكلب نحو الجنوب نباحه يشبه العواء.

عاد (عثمان) نحو النخلة، ربط الكلب فيها، بحث ببصره عن موضع نجمته فوق الكعبة، اتجه إليها ثم أحكم لف الحبل على نفسه من الوسط، وعند الصدر، شد رباط الحبل بقوة، هكذا اطمئن قلبه

أن تيار الماء سيفشل في إخراجه من داره، ابتسم لأنه قاوم ظلما وقع على نفسه وأهله. بعد ساعات قليلة بدأ يسمع هدير الماء القادم ويشعر بعنفوانه، ظل يردد الشهادتين حتى انخلع باب الدار وأخرسه الماء.

(٧)

استند الحاج (محمد الطاهر) على عصاه بيمينه، بينما يسراه تتأبط ذراع ولده (عبد الله) في طريقه للزيارة الشهرية لمنزل (ونجى) والتي حرص على ألا تنقطع طوال عامين ويزيد، منذ وطأت أقدامهم القرى الجديدة، لم يحمل معه المبلغ الشهري الذي خصصه لها؛ لتعيش أو تنفق على تعليم (مصطفى)، كما لم يصحب «الزوادة» الشهرية التي تعدها زوجة ابنه الأكبر (على)، كان لديه هذه المرة رغبة تمنى ألا تردها (ونجى)، تمنى أيضا لو قامت بهذه الزيارة زوجته (آمنة)، لكنها تركته في الأرض لصحبة أفضل في السماء على أمل بلقاء قريب في جنة عدن، رق قلبه لذكراها، تجسدت في عينيه لحظات ولادتها لـ(عبد الله) وكيف أن آلام المخاض كانت أكثر إرهاقا لها من ثلاث مرات سابقة، خرج الوليد للحياة لتنسحب أمه منها قبل أن تراه،

لم تمس قلبه فرحة رزق الله الوليد، فقد سبقها الحزن على الأمانة التي استعادها خالقها، فقده لـ(آمنة) بنى سور من الأوجاع حول قلبه لم تستطع أي فرحة أن تعبره بعد ذلك قط، لكن قلبه حنَّ للوليد كما لم يفعل من قبل، مال إليه أكثر من أخوته اللذين سبقوه إلى قلب أبيه بأكثر مما فعل (يعقوب)، لكنهم لم يكونوا كأخوة (يوسف) فنشأ لا يفتقد كثيرا من حنان الأم، لأن أخته منحته منه ما تستطيع، وأخواه كانا له عونا دائما في كل شيء، فشب متمتعا بالرجولة منذ الصغر، باسم الوجه أبدا، رغم مسحة من حزن اليتم التي سكنت عينيه طوال حياته، ولم يكن لها من قاهر، فرح (الطاهر) حينما طلب منه (عبد الله) أن يتقدم لخطبة (دهيبة) فجدّها والد (ونجى) «ابن عمه» كان رفيق صباه وشبابه، لكنه سبق (آمنة) بسنوات إلى الموت، حرص (الطاهر) أن يذهب لطلب يد الفتاة ذات السبعة عشر ربيعا بنفسه. فلها في نفسه مكانة؛ لأدبها وحسنها وطيب معشرها، كما لأمها من مكان في القلب أيضا، أما أبيها الغائب فقد عده (الطاهر) ولدا له لم يلده.

وصلا إلى باب الدار فرفع (الطاهر) عصاه وطرق الباب طرقة واحدة، ثم اتبعها بأخرى، فعرفت (ونجى) أن الطارق هو عمها الحاج (محمد الطاهر)، فهو دائما يطرق الباب بنفس الطريقة، أمرت (دهيبة) أن تفتح الباب لجدها وقامت هي تنادى (مصطفى) ليكون رجل البيت في استقبال الضيف القادم، فهي تتحين كل الفرص المناسبة لتقوى عزم الرجولة في نفس ولدها. طوال الوقت كانت تمنحه حق «رجل البيت» حتى على نفسها لتعوض به غياب الحبيب

(أحمد) في جوف المعتقل، هيَّجت ذكرى الزوج الغائب فؤادها الذي لم يعرف الراحة منذ سنوات، ترى يا زوجي الحبيب كيف أنت الآن؟، كثيرون يموتون في المعتقلات تحت وطأة التعذيب، لكن قلبي ما زال يحيا على نبضاتك أنت، لهذا فأنا على يقين أن حياتك ما زالت تمتد، وأن يوما سيأتي حتما ألقى فيه برأسي على كتفك لتزيح عنى هموم سنوات الفراق، فأعود صافية النفس كيوم ولدت.

أشرق وجه (دهيبة) حين أبصرت (عبد الله) خلف أبيه، انحنت على يد (الطاهر) تقبلها وتمسها بالجبين علامة التقدير والاحترام، ربت على رأسها:

ـ السلام عليكم يا بنتي.

ـ وعليكم السلام ورحمة الله يا جدي.

ـ أين (مصطفى)؟ رجل البيت.

ـ موجود يا جدي، تفضل.

أفسحت لهما الطريق ليدخلا ثم غابت في المطبخ لتصنع لجدها الشاي الثقيل الذي يحبه، خرج عليهم (مصطفى) مشرق الوجه، انحنى أيضا على يد (الطاهر) وقبلها:

ـ مرحبا جدي (الطاهر) نورت الدار.

ثم عانق (عبد الله) عناقا حارا وربت على ظهره في محبة جمة:

ـ أهلا أخي (عبد الله)، كيف حالكما؟

ـ بخير يا ولدي ولله الحمد، اجلس يا ولدي، فلدى ما أقوله لك.

ـ خيرا يا جدي.

ـ أرسل في طلب أمك أولا فلي رغبة أن تسمع ما سأقول.

ـ تحت أمرك.

نهض إلى حيث (ونجى) وأخبرها برغبة عمها في الخروج إليه. كانت بالفعل ترتدي زى مناسب للقاء الرجل، خرجت إليهم ووجهها يحمل كل ملامح الترحيب، لم تنس للرجل أنه وقف بجوارها منذ غياب (أحمد) بمشاعر خالصة لوجه الله تعالى، كما لم تنس أيضا كيف أنه وقف في وجه (محمد المهدي) حينما ظن أنها امرأة سهلة المنال لمجرد غياب زوجها عنها.. يوم ذهب إلى داره، وطرق الباب بعصاه كعادته وحين خرج إليه (المهدي) وضع العصا على رأسه وقال له:

ـ ما أسهل كسر هذا الرأس يا (مهدى) إن هي إلا ضربة واحدة من هذه العصا لا يحميك منها إلا أن تبتعد عن طريق ابنتنا (أم مصطفى).

فزع (محمد المهدي) ليس من تهديد (الطاهر) له، وإنما من نظرة عينيه الصارمة التي تنبئ بصدق الوعيد، لم تتحرك شفتاه برد، فانسحب إلى داخل داره مسرعا ليختفي عن عين (الطاهر)، ولم يجرؤ أن يغلق الباب حتى ابتعد العجوز ولم يقترب (المهدي) من (ونجى) بعدها أبدا.

انحنت (ونجى) على يد (محمد الطاهر) تريد تقبيلها لكنه سحب يده واكتفى بالتربيت على رأسها:

ـ اجلسي يا ابنتي فلي معكِ كلام.

ـ تحت أمرك يا عماه.

ـ قاربت هجرتنا على ثلاثة سنين لم تجف فيها دموع النساء ولا ماتت خلالها حسرة الرجال، لم نعرف طعم الفرح منذ هجرنا بلادنا، وأخشى أن ننساه يا بنيْتي.

ـ ربنا يجعل أيامك كلها فرح يا عم.

ـ بيدك أن تجعليني أعيش أيام فرح قبل رحيلي الذي أقترب موعده.

ـ أطال الله عمرك لكن كيف يا عم؟ ولن تجد مني تأخير.

نظر (الطاهر) إلى (مصطفى) وتأمل ملامحه التي تشبه سماحة وجه أبيه:

ـ هل تظن يا (مصطفى) لو أن أباك كان بيننا الآن ـ فك الله عنه الكرب ـ أكان يرد لي طلبا؟

ـ والله يا جدّ ما عهدت منه إلا حبا خالصا لك، وطاعة دائمة لرغباتك، يختصك بها عن الجميع.

ـ أنت الآن يا ولدى رجل البيت حتى يعود سيده من الغياب، ولهذا أسألك يا ولدي أن نزوج ابنتنا (دهيبة) لابننا (عبد الله).

وقفت (ونجى) مترددة ما بين التجهم والسعادة، تحبس دمعة تريد الفرار فلا تدرى أهي دمعة حزن أم دمعة فرحة:

ـ أتظن يا عم أنى أزوج ابنتي في غياب أبيها؟

ـ والله يا ابنتي إني أرى أن هذا أمر يرضيه، ويخفف عنه مصاب محبسه. لو علمه.

ـ لكن يا عم....

اقترب (مصطفى) من أمه وربت على كتفها:

ـ أجلسي يا واندى، لقد قلت منذ لحظات أنى ما عرفت أبى محبا لأحد من «ناسنا» أكثر من جدي (الطاهر)، ولم أراه حانيا على أحد قدر ما حنَّ على (دهيبة)، وقد غابت عنا الفرحة سنوات عجاف ثلاث، أتضنين علينا بلمحة منها حتى نرتوي من فرحة عودة أبى بإذن الله؟، لقد عانيت فقد الأرض والأب والأخ والجدة، فلتسمحي أن نشذ عن سُنة الفراق إلى سُنة التلاقي، ونجمع أختي (دهيبة) على أخي (عبد الله)، لعلنا نحدث في جدران الحزن شرخا يساعدنا على هدمه.

ـ ما أفصح لسانك وقوة حجتك يا ولدى، اسمعي لولدك يا (ونجى) فقد صدقك النصيحة.

تنحنح (عبد الله) مبديا رغبة في الكلام فأشار له (الطاهر) أن يصمت ففعل، نظر إلى (ونجى):

ـ ما أحسبك ترديني خائبا يا (أم مصطفى)، لكن الشرع يقتضى أن تراجعي (دهيبة) وسأنتظر حتى يأتيني الجواب.

نهض فمد (عبد الله) يده ليستند عليها وقرَّب (مصطفى) العصا

من يمناه فأخذها منه، ونظر له مبتسما:

ـ ستشب حكيما يا (مصطفى) وتلازمك الرجولة، فاصبر يا ولدى على السوء. فالله مبدل الأحوال إلى الخير بإذنه.

ـ إن شاء الله يا جدي، واطمئن لجواب طلبك فما أرى أمي إلا ابنتك وهى لا ترد طلبا لوالدها، الأمر كله أنها تخشى أن تفرح في غياب الحبيب، فلا يشاركها منه شيئا، كما أنها تخشى أن تنتقص جزءا من فرحة وحيدتها بالزواج لغياب الأب، لكن الله يبدل الحزن فرحا بقدرته.

تبسم (الطاهر) لفصاحة (مصطفى):

ـ لو أن لي ابنة للزواج ما تركتها تتزوج غيرك.

ـ أعزك الله يا جد، لكن بيدك أن تدعو لي الله بالزوجة الصالحة حينما يأن أوانها.

انسحب الرجل وولده خارجين من الدار وهو يتمتم:

ـ إن شاء الله يا ولدى.

فالتمعت عينا (مصطفى) من السعادة ونادى على أخته، أتت إليهم تحمل أكواب الشاي فأجلسها:

ـ يا شقيقتي، إني ما أفهم معنى كلمة الشقيق إلا لأنه يشق على النفس فراق الأخ، لكن بعض الفراق فرح، ورغم عتمة المحنة ستشرق شمس الفرج بإذن الله.

ـ أنا لا أفهم يا أخي معنى كلامك.

ـ لقد طلبك (عبد الله) للزواج.

أطرقت (دهيبة) تخفي ابتسامتها فاقتربت منها (ونجى) وضمتها إلى صدرها:

ـ كبرتِ يا نبتة بطني في غفلة مني.

ابتسمت (دهيبة) مرة أخرى وصمتت، فعلت ضحكة (مصطفى):

ـ صمت الفتاة رضا يا (أم مصطفى)، فلنفرح يا أمي. علنا نخاصم الأحزان.

ـ لن نخاصمها إلا إذا عاد الغائب.

ـ على الأقل نبعدها عنا أياما ولو قليلة.

تنهدت (ونجى) وأعادت ضم الفتاة إليها، وكأنها تحاول استيعاب الأمر:

ـ على بركة الله يا بنيْتي.

(٨)

خمسون جلدة نالها (أحمد) معلقا من قدميه في غرفة التعذيب حتى أسالت دمائه، دار حوله أحد ضباط المعتقل وهو يبتسم، نفث في وجهه دخان سيجارته:

- أتريد أن تخرج من هنا يا (أحمد)؟

نظر له (أحمد) مقلوبا ولم يجب

- الأمر بسيط يا أحمق، قل (أنا امرأة) واختر لنفسك اسما جديدا ليكون هذا مفتاح خروجك من هنا.

لم تتحرك شفة (أحمد) واكتفى بإغماض عينيه

- سأساعدك وأكون ديموقراطيا.. سأترك لك اختيار الاسم، هل تفضل (سعاد) أم تجد (فاتن) أحسن؟، أم تراك تنتقى اسما آخر؟

جلجلت ضحكة الضابط، وتردد صداها بين جدران الغرفة،

نظر إلى يمينه وأشار إلى أحد معاونيه بطرف عينه فرفع السوط ليمنح ظهر (أحمد) توقيعا من يد الطغيان سيدوم أثره في النفس طويلا، بعد عدة ضربات أشار الضابط لمعاونه بالتوقف، اقترب من (أحمد):

- لماذا لا تصرخ من ضرب السياط؟

خرجت الكلمات من فم (أحمد) واهنة:

- تركت الصراخ للنساء.

أرتفع صوت الضابط محتدا:

- وهل تظن نفسك رجلا؟ إن أردت يمكنني حرمانك من رجولتك بإشارة، ولدينا من سيستمتع بهذا.

ابتسم المعاون والتمعت في عينيه إشارات السعادة، دائما ما يستمتع بأداء واجبه في الدفاع عن الوطن من شر هؤلاء المعتقلين، يخبره الضباط دوما أن المحتجزين هنا ما هم إلا أعداء للثورة ورئيسها. لا يحلمون إلا بالهدم، وجر مصر نحو الظلام والهاوية، لهذا يسعد أنه يحمي البلاد منهم، نظر نحو الضابط منتظرا الإذن بمعاودة الجلد لكنه أمر بإنزال (أحمد).

ألقوه على الأرض الصلبة بقسوة، انحنى الضابط نحوه ثم ابتسم بسخرية، في طريقه للخروج من الغرفة وهو يشير لـ(أحمد) علامة الوداع:

- أراكِ غدا يا (عنايات)، أعيدوها لزنزانتها.

- لستُ (عنايات) وظلمكم لن يدوم، سيسقط بنيان الظلم ولو بعد سنين.

خرجت الكلمات واهنة من فم (أحمد) لكنها وصلت إلى مسامع الضابط فعاد إليه مُحمر البشرة، وقد برزت عروق جبهته وانقلب وجهه، ضرب حذائه الميري الثقيل في صدر (أحمد) بقوة فطرحه:

ـ ألم تتساءل يا (عنايات) يوما لماذا لم تموتي إلى الآن؟

ثم أضاف والغل ينسكب من فمه قبل كلماته:

ـ لأنك لن تنال منى هذه الرحمة أبدا حتى تنهال دموعك، ستظل ملكا لي حتى ينكسر كبريائك، سنوات ثلاث لم تصرخ فيها أو تبكي، لكن ذلك لن يدوم، ستنحني مثل كل من سبقوك، كانوا يأتون إلى هنا بعنادهم وكبرهم وكرامتهم، فلا يخرجون إلا بدونها، أو تبتلع جيفتهم رمال الصحراء، لا أحد هنا يبقى آمنا من إرادتنا، فهي تعلو كل شيء في هذه الدولة، أفهمت؟

صرخ في وجه معاونيه:

ـ جردوه من ملابسه.

هرولوا لنزع القماش المُهترئ من فوق الجسد الأسير، ثم أوقفوه أمام الضابط، اقترب منه تسكن عينيه نظرات التحدي، تحسس بطن (أحمد) ثم لكمه بعنف، انحنى ألما فأعادوه لوقفته:

ـ (عنايات) تظن أنها رجل، هل هذا صحيح؟

قالها بصوت جهوري، وكأنه يخطب في الجماهير، هز معاونوه رؤوسهم نفيا فابتسم:

ـ كيف إذن نزيل هذا الوهم من رأسها؟

فأسرع أحد المعاونين ليقبض بقوة وكف غليظ على ما بين الفخذين لتخور قوى (أحمد) الذي ذم شفتيه، يمنع انفلات آهة الألم؛ ليحرم جلاده من المتعة، ثم سقط مغشيا عليه مع اشتداد الألم، ليضحك الضابط ومعاونوه.

ـ أعيدوا (عنايات) إلى الزنزانة الأولى، لن تنعم بعد الآن بالزنزانة الانفرادية، يجب أن يَرى الجميع عائدين إلى الزنزانة منكسي الرؤوس؛ حتى يتعلم معهم معنى الخضوع، وغدا نضبط لها كهرباء كرامتها التي زادت عن الحد.

غادر الغرفة وعلى وجهه ابتسامة المنتصر، فلا أحد هنا يجب أن يبقى مرفوع الرأس ومن لا يتعلم الانحناء، فليتنازل عن رقبته، وما تحمل فوقها.

(٩)

خرج (عبد الله) من منزله محاطا بعدد من أصدقائه وأقاربه يحملون «الشيلة» هدية أهل العريس لأهل عروسه، نظر (عبد الله) إلى الشيلة بفخر وصارح نفسه أن أغلب العرسان يقدمون جوالا من دقيق وآخر من ذرة وذبيحة، بينما هو قدَّم الضعف من كل شيء، طوال الطريق لم يتوقف الغناء، يتجهون نحو منزل (أحمد جُلق)، كلما مر الموكب على دار يخرج ساكنوه للمشاركة في الأغاني، وتتسابق السيدات في الزغاريد والغناء للعريس وعروسه، يلقون الحلوى على الموكب، يتبادلون التهاني والمباركات، شارك جميع أهل القرية في الموكب ارتفعت الأغاني والزغاريد، ورقص الجميع أمام العريس، وكأن أهل القرية جميعهم أرادوا أن يكون الفرح الأول في القرية الجديدة فرحا للجميع لعلهم ينسون به أحزانهم، ويطاردون به الألم الذي سكن الصدور منذ التهجير.

وصل الموكب إلى دار (أحمد جُلق) الذي غاب عن الحضور لكن (مصطفى) وقف وسط أعمامه وأهل أبيه وقد أنضجته التجربة؛ متحملا للمسئولية في استقبال الموكب، تقدمت نساء العائلة نحو العريس يحملون أطباق الخوص التي حوت «خبز الدوكة» يصنعن خبزًا غير مختمر، ليتم تناوله مع اللبن في الاحتفال كما توارثوا عن الأجداد رمزا للبركة، وكذلك حوت الأطباق التمر وأواني اللبن، ليتناول منها العريس شيئا حتى تعم السعادة حياته مع عروسه.

في طريق عودته إلى المنزل انتظره شيخ الكُتّاب أمام باب الكُتّاب، ومعه الصبية الصغار اللذين يحفظون كتاب الله على يديه، وعند مرور (عبد الله) أنشدوا شعر المديح للنبي، فتوقف (عبد الله) أمامهم، أناخ جمله واتجه إلى شيخه، قبل رأسه، ثم منحه طبقين من الخوص. أحدهما يحوى تمرًا، والآخر يحوى دقيقًا، وقد غطى كل طبق بقطعة من قماش القطن الأبيض تصلح لعمل جلباب جديد للشيخ.

يوم العرس أصر الحاج (محمد الطاهر) أن يكون أول من ينحر ذبيحة في فرح (عبد الله) وما أن سالت قطرات الدماء الأولى حتى ارتفعت الزغاريد وانطلقت الأغاني والرقصات، جلس (عبد الله) على «الحصيرة البيضاء» يحمل سيفا ويجاوره «الحراسكو» وهم اثنان من أقرب أصدقائه اختارهم بنفسه، يجلسون بجواره ويحمل كل منهم كرباجا في إشارة لحمايته من الجن والحسد وثالث يجلس بالقرب من العريس ليدون له أسماء كل من منحه هدية في زواجه، ثم بدأ الجميع يتقدمون نحو العريس لتقديم «النقطة» وهى الهدايا المالية

التي سيلتزم العريس بردها إليهم بعد ذلك في مناسباتهم الاجتماعية المختلفة، والجميع يصيح:

ـ خلف الله عليك.

التمعت العيون واتسعت الابتسامات وتمايلت الأجساد في رقص «الكف» ورقص «الوسطانية».

دار (مصطفى) بين المعازيم للترحيب بهم، جلس بين كبار العائلة يتحدث بينهم بعقل راجح، يشارك الشباب رقصاتهم، يرحب بكل قادم، طوال الوقت لم تشيح (ونجى) بصرها عن ولدها (مصطفى) تشعر بالفخر أن هذا الرجل نتاج تربيتها، ملامح أبيه تسكن وجهه وزهرة الرجولة فيه نضجت وتفتحت مع التهجير، واليوم أثمرت ولدا تأمن في قربه منها، نظرت إليها جارتها (عائشة):

ـ تود إينج إينارى ويدلتون بيانه(*)، ما شاء الله عليه يا (ونجى).

شعرت (ونجى) بسعادة إضافية لكلمات (عائشة) وابتلعت الابتسامة وجهها.

بعد انتهاء العرس، دخلت (ونجى) حجرتها وأغلقت بابها جيدًا:

ـ تزوجت (دهيبة) يا (أحمد)، بدرا بدت في تمامه وسط العرس، كنت أتمنى أن تكون بيننا، لكن صدق (مصطفى) في كلماته حين أخبرني إنك لابد سعيدا الآن لزواج البنت، عدْ لنا يا (أحمد) قريبًا حتى تكتمل الفرحة.

(*) مثل نوبى يعنى «الولد البار بأمه يظهر من مهده».

راحت (ونجى) في النوم متمنية أن ترى الزوج الحبيب في أحلامها لتحكى له أكثر عن زفاف (دهيبة) وفرحة الناس جميعا بها، وسعادة أهل القرية بهذا العرس.

(١٠)

شيءٌ غريبٌ يحدث داخل جدران المعتقل، عدد من الزنازين أخليت من شاغليها، وضموا على الزنازين الأخرى. حركة السجانين والضباط لا تنقطع ما بين الممرات على مدار الوقت، قال (عبد الرحمن):

ـ استر يارب، يا ترى ما الذي حدث؟

ابتسم (أحمد) في وهن:

ـ ما الذي تتوقعه يا (عبد الرحمن) غير أن هناك أبرياء آخرون كتب عليهم القدر أن يقعوا في براثن الزبانية؟

ـ الأمر يبدو غير مألوف، مرات عدة، أتى نزلاء جدد إلى المعتقل، لكن هذه المرة تختلف، هناك حركة غير عادية.

ـ لدينا هنا وقت طويل، اصبر وسوف نرى.

مرت ثلاث أسابيع كاملة لم يفتح فيها باب الزنازين إلا لتقديم الطعام للمعتقلين، وجوه السجانين تحمل جبينا مقطبا، ونظرات كسيرة، خسرت عيونهم نظرات الكبرياء والتعالي، وانخفضت الصدور التي انتفخت غرورا من قبل، لم يعرف أحد ماذا يحدث بالفعل، أخيرا سُمح للمعتقلين بالخروج إلى ساحة المعتقل في فسحة، بعد قليل تناثرت الهمسات هنا وهناك:

ـ ضابط التعذيب أصبح نزيلا بيننا.

ـ هل جننت يا رجل؟ إن هذا مستحيل.

ـ تحقق بنفسك، إنه هناك بجوار السور، اقترب وتحقق.

تلفت حوله في حذر قبل أن يقول:

ـ وهل أنا مجنون لأقترب منه، لن أفعل، فلتفعل أنت.

ـ ......

ـ ......

تدخل معتقل آخر في الحديث هامسا:

ـ يقال أن (ناصر) خسر الحرب ضد الصهاينة.

استنكر أحدهم قوله:

ـ مستحيل يا أخي، لا يمكن أن نخسر الحرب، لو أن حربا نشبت لألقى الرجل بهم في البحر، لقد قال ذلك عدة مرات.

سخر الأول منه:

ـ هذا مجرد قول، ألم يقل أيضا أن كرامة كل مصري مصانة؟، هل ما يحدث هنا أو في الخارج فيه صيانة لكرامتنا؟

أحنى الثاني رأسه، ونظر إلى الأرض والدموع تترقرق في عينيه:

ـ لو أننا خسرنا الحرب بالفعل؛ فلن يلحق عار الهزيمة بالرجل وحده، بل سيجلل هذا العار رؤوسنا جميعا.

تدخل ثالث في الحديث منفعلا من الغضب:

ـ وما العمل؟ هل نظل هنا بين هذه الأسوار والبلد في حالة حرب؟

عاد الأول للهمس:

ـ وهل يمكن أن نفعل شيئا؟ نحن لسنا أحرارا يا أخي.

ـ لو أن بإمكاني أن أحطم تلك الأسوار، لكنت على الجبهة الآن.

ـ ستكون هناك وحدك إذن، تقول الأخبار أن الجيش انسحب من سيناء سيرا على الأقدام، تاركين كل شيء غنيمة للصهاينة.

دوى صفارة أطلقها أحد الحراس، أجبر الجميع على الصمت والهرولة للاصطفاف طوابير في الساحة المكشوفة، أتاهم صوت عبر المكبرات بتعليمات جديدة عليهم طاعتها، ثم اتبع ذلك بث لأغنيات وطنية حتى أعادوهم إلى الزنازين.

(١١)

وضعت (دهيبة) طفلها الأول بعد تسعة أشهر تماما من الزواج، فرحت به (ونجى) وكأنها لم تعرف الحزن يوما، كانت تتمنى أن يسموه (أحمد) لكنها لم تبُح بأمنيتها أبدا، وضعوه في حجر جدَّه (محمد الطاهر) ليؤذن في يمنى أذنيه، ويقيم الصلاة في يسراهما، غالب مرضه، حمل الصغير وضمه إلى صدره، رفع الأذان والإقامة للوليد، ثم أغمض عينيه للأبد ليعيش (عبد الله) شعور المنح والأخذ معا مثلما شعر والده مع مولده فسمي وليده (الطاهر) ليمتد ذكر أباه في الحياة.

* * *

جلست (ونجى) صامتة تضع يدها على خدها، ترتدي السواد وطائر الحزن يرفرف بجناحيه على قلبها، رآها (مصطفى) فسألها:

ـ ما بك يا أمي؟

تنهدت بحرارة قبل أن تجيب:

ـ كل خير يا ولدى.

ـ لكنى أراكِ حزينة.

ـ لا شيء يا ولدى، أفكر في حالنا.

بدا القلق على (مصطفى) وهو يقترب منها ليضمها ويربت على ظهرها في حنان ذكرها بضمة (أحمد) لها فيما مضى، فأجهشت في البكاء، حاول (مصطفى) أن يهدئ من روعها:

ـ ما لك يا واندى؟ لم كل هذا البكاء المر؟

ـ لقد أصبحنا وحيدين في هذه الدنيا يا (مصطفى)، غادرنا والدك إلى حيث لا ندرى، ثم مات (إبين) ولحقت به (آشريا)، تزوجت (دهيبة) وانتقلت إلى بيت زوجها، وأخيرا مات عمى (الطاهر).

ـ الفراق سنة الحياة يا أمي، نتقابل لنفترق، نولد لنموت، تتقاطع مسارات حياتنا في تلاقى وتباعد، هذا هو القدر يا أمي.

مسحت دموعها بكفيها وأغمضت عينيها ثم أردفت:

ـ أظنك تعرف أنه طوال مقامنا هنا وجدك (الطاهر) كان يتكفل بمعيشتنا ومصروفات تعليمك، الآن وقد رحل، فمن لنا غير الله؟

تسرب بعض العتاب إلى صوت (مصطفى)، حاول التغلب عليه بأن نظر بعيدا عن وجه أمه:

ـ عرضتُ عليكِ فيما سبق أن أعمل وأتكفل بالبيت.

نظرت (ونجى) إلى عينيه مباشرة بحدة:

ـ وأخبرتك من قبل أن والدك أراد لك أن تتعلم وسوف أحارب الدنيا بكاملها لأحقق له أمنيته فيك.

تنهد (مصطفى) بفراغ صبر:

ـ وما العمل الآن؟

وقفت (ونجى) وهى تضيف في تصميم:

ـ سأعمل.

شعر (مصطفى) بطعنة في رجولته الوليدة:

ـ كيف تعملين يا أمي وأنا موجود؟

أعادت النظر إلى عينيه كي تصله الرسالة واضحة:

ـ لا مفر أمامي يا ولدى، كل ما بقى لك عامين بالدراسة، انـهها، ثم اعمل، وأكمل المسير.

ـ لكن أبى لن يسامحني إذا تركتك تعملين.

ـ ولن يسامحك إذا لم تحصل على شهادتك.

ـ لكن ماذا ستعملين وأنتِ لا خبرة لكِ بالحياة؟

ـ أي شيء، سأرسل إلى ابن خالي (مُولى) بالقاهرة، ليساعدنا.

ـ وكيف سيفعل يا أمي؟ إنه يعمل سائق بالقاهرة، لو كان قادر على توفير فرص عمل لمنح نفسه وظيفة أفضل.

ـ لعله يفعل يا ولدى، نحن في حاجة لأي مصدر للمعيشة.

انتهى الحوار بينهما بالكلمات، لكنه استمر بالنظرات المليئة بالتساؤل والقلق، لم تكن (ونجى) الوحيدة التي فكرت في هجرة ثانية، فاغلب رجال القرية كانوا يعملون بالزارعة ولا عمل لهم في هذه الصحراء، فهاجر كثير منهم إلى القاهرة والصعيد والإسكندرية، شتات فرَّقهم في الأرض، ليقل عدد سكان القرية تدريجيا بهجرة ثانية، وكأن آلام الأولى لم تكن كافية.

(١٢)

في ظلام القطار المتجه إلى القاهرة أسندت (ونجى) رأسها على كتف (مصطفى) مغمضة العينين، لكنها مستيقظة، كانت روحها تتعذب وقلبها يعتصره الألم من جديد، إنها الهجرة الثانية، لكن هذه المرة نحو المجهول، والقلب أتعبه الرحيل، وأرهقه الفراق، وأنهكه الحزن، لم تكن تدرى ما الذي ينتظرها في القاهرة، لكنها مغامرة من أجل البقاء، مناوراتها الأخيرة مع الحياة؛ كي لا تلتهمها أنياب الدنيا القاسية، كانت تتمنى أن يكمل ولدها تعليمه ويحقق حلم (أحمد) في أن يحمل ولده شهادة، لم يكن يشغلها كثيرًا مصدر الرزق، فأهل النوبة في القاهرة سيتكفَّلون بهذا الأمر، فالنوبيون يتكافلون معا بشكل كامل، حتى إنهم على استعداد لاقتسام كل شيء مع بعضهم؛ حتى تمر ظروف المحنة، وهذا التكافل لن يختلف. سواء كانت من

الكنوز أو الفاديكات، فهذه التفرقة القبلية لن تجد لها مكانا خارج النوبة.

نظر (مصطفى) من الشباك نحو الحقول التي تحيط بشريط السكة الحديد، أعمدة الإنارة تتسارع أمام عينيه مثلما تتسارع أيامه منذ التهجير، لا يدري أي مشاعر تنتابه في هذه اللحظات، القلق من المستقبل الذي لا يعلم ما الذي يحمله قادم الأيام، الحزن؛ لأنه يفارق ناسه وأرضه للمرة الثانية، وهو لم يصل إلى التاسعة عشر من عمره بعد، الشجن الذي سكن مشاعره منذ رأى بعينيه أباه يتم جرُّه نحو سيارة الشرطة، مع السباب والضرب والإهانة التي لم تفارق ذاكرته أبدا، وكأن المشهد يتكرر أمامه كل يوم.

أراح رأسه على زجاج النافذة؛ ليتذكر أنه ترك رأسه ترتاح على نافذة الحافلة منذ أربع أعوام، وهو يغادر النوبة إلى القرى الجديدة، فهل تقابله القاهرة بجفاء مماثل لما فعلته قرية التهجير؟ ظل السؤال يلح في ذهنه حتى زاحمه تساؤل آخر، ماذا لو خرج (أحمد) من المعتقل فلم يجدهم في الدار؟، صحيح أنهم أخبروا (دهيبة) بوجهتهم لكن هل يحتمل أن يخرج أباه فلا يجدهم هناك؟ أزاحت ذكرى أخته تلك الأسئلة من رأسه، وهو يتذكر دموعها، وهي تنساب على وجنتيها عندما سألته:

ـ هل هنت عليك يا أخي لتتركني هنا، وتذهب إلى شتات جديد؟ تتركني وحدي، بعد أن ذقت ألم الفراق من قبل مرارا.

أجابها والحزن يسكن حروف كلماته، ويصارع دموعه كي لا تولد في عينيه:

ـ سأعود إليك في الأجازات يا شقيقة الروح، لن أتركك أبدا، كما أنك لست وحيدة، فلديك (عبد الله) وولدك (الطاهر).

تهدل كتفاها في يأس، ونظرت للأرض:

ـ لكنهم لن يكونوا عوضا عنك يا (مصطفى).

* * *

توقف القطار في إحدى المحطات، وبدأ الركاب في النزول ليحل محلهم آخرون، عدد من البائعة الجائلين رفع صوته إعلانا عن بضائعهم المتواضعة، من النافذة كان يرى أحضان اللقاء بطول الرصيف، أغمض عينيه وهو يتمنى أن يحتضن أباه يوما ما عندما يعود، لكن متى يعود؟ كثيرون ممن يختفون في ظلام المعتقلات. لا يعودون إلى النور أبدا، فهل يخالف أباه هذه القاعدة؟ ماذا لو كان قد مات من التعذيب؟، ما أن وُلِد السؤال الأخير بذهنه؛ حتى نفض رأسه، وهو يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، التفت ينظر إلى أمه كي يحصل على بعض الطمأنينة من وجودها.

رفعت (ونجى) رأسها من فوق كتفه لتنادى على أحد الباعة تشترى منه طعاما بآخر نقود تملكها، بعد ساعات وصل القطار إلى نهاية الرحلة،

القاهرة، عندما خرج من المحطة دارت رأسه لاتساع المكان وزحام البشر واختلافهم، يتحدثون بلهجات مختلفة، يرتدون ملابس مختلفة، لديهم ملامح مختلفة، في النوبة كان الناس يتشابهون في كل شيء بينما هنا الاختلاف هو القاعدة، اختبأت (ونجى) خلف ظهر (مصطفى)، لم تصدق وجود كل هؤلاء البشر في نفس المكان إلا إن كان اليوم هو يوم الحشر، من بعيد لمحوا (مُولى) يشير لهم ويقترب ووجهه تضيئه ابتسامة ترحيب ومودة، ما أن ضم (مصطفى) إلى حضنه حتى همس في أذنه:

ـ اطمئن، لقد ولت أيام الشقاء.

ثم ربت على ظهره بقوة، وحمل عنهم متاعهم متجها نحو سيارة أجرة.

(١٣)

تسربت إلى ذهن (ونجى) ذكرى خطواتها الأولى إلى القاهرة منذ سنوات أربع، معاناة كبيرة حتى حصلت على عمل، لم تكن تحمل أي شهادات أو خبرات في الحياة. فلم تجد إلا العمل كخادمة، تذكرت كم طأطأت رأسها أمام أشخاص لا يستحقون كي تطلب عملا، كم مرت عليها ليال. لا تجف دموعها حزنا على زوجها الغائب، وقهرا من الحاجة، تنهدت ثم حمدت الله أن مرَّت هذه الأيام، طرقات مرحة على الباب بخرت الذكرى من رأسها، ودفعت بها لتفتح الباب لتجد (مصطفى) تبتلع الابتسامة وجهه، وهو يلوح بجريدة الأهرام:

ـ لقد فعلها (السادات) يا أمي، لقد فعلها.

فرحت (ونجى) لفرح ولدها قبل أن تعرف ما سبب سعادته، ثم سألته:

ـ وما تلك الفعلة التي منحتك هذا القدر من السعادة يا سندي؟

عاد (مصطفى) يلوح بالجريدة، ثم أشار إلى الصورة المنشورة بحجم كبير في الصفحة الأولى وقرأ على أمه العنوان الرئيسي للجريدة:

ـ (السادات) يهدم المعتقلات ويأمر بالإفراج عن كل السجناء السياسيين.

ثم نظر إليها وأحاط كتفيها بيديه:

ـ سيخرج أبى من المعتقل يا أمي في خلال أيام، هيا أسرعي واحزمي ملابسنا، ستسافرين إلى (الدكة) لتكوني في انتظار الحبيب العائد بدارنا المغلقة منذ سنوات.

كادت الفرحة تحبس الصوت في حلق (ونجى) فلم تجد ما تعبر به عن فرحتها الغامرة، حتى جسدها اضطرب من المفاجأة. فلم تدر ماذا يجب أن يفعل، كادت تقفز من السرور لكنها في النهاية جلست مكانها على الأرض، والسعادة تزلزل كيانها، تنهمر الدموع على وجهها. فلم تعرف هل هي دموع من فرط الفرحة؟ أم هي دموع حزن على سنوات ضاعت بعيدا عن حبيبها وزوجها. تدفقت الذكريات في ذهنها رأت (أحمد) يوم زفافهما والفرحة تسكنه، تذكرت لحظتهما الأولى في غرفتهما في بيت النوبة القديمة، والخجل يكاد يقتلها، لحظات ميلاد (مصطفى) وفرحة (أحمد) به، كيف كان يلاعب (دهيبة) بحنان لم تره من قبل، أفاقت من ذكرياتها، وانتفضت مهرولة إلى حجرتها تتحضر للسفر، ومن داخل غرفتها نادت (مصطفى):

ـ ألن تتحضر للسفر أنت أيضا يا (مصطفى)؟

ـ لا يا واندى، سأذهب للسؤال عن مكان أبى وإجراءات الإفراج عنه لأكون في استقباله، يجب أن أكون أول وجه يراه أبى لحظة خروجه من المعتقل، يجب أن أكون الحضن الأول الذي سيحتويه بعد سنوات الغياب، ثمان سنوات يا أمي يحتاج أبى أن يدفنها بدفء اللقاء.

عادت (ونجى) جريا إلى (مصطفى):

ـ إذن خذني معك، أحتاج أيضا لحضن أبيك كي أوأد فيه أحزانى، أتمنى أن يستند إلى كتفي مع خطوات الحرية الأولى، أن تتعانق أيادينا وأعيننا، شرخ السعادة الذي أحدثناه في سور الحزن بزواج (دهيبة) آن له أن يكتمل؛ ليهدم هذا السياج بعودة زوجي وحبيبي وقرة عيني.

لم تخجل (ونجى) أن تصرح بحبها لـ(أحمد) أمام ولدها (مصطفى) فالبيئة النوبية (أمومية) فحتى وقت قريب كان الطفل النوبي ينسب لأمه، ولم يكن اسم الزوجة أو الأم مخجلا كما رأت في القاهرة، فهنا الرجل يصف زوجته بالجماعة، ويخجل من التصريح باسمها، ولهذا لم يندهش (مصطفى) أيضا من سماع أمه، وهى تصف أباه بالحبيب فقد تربى في بيئة تحترم المرأة وتقدرها، ولهذا تقدر تماما مشاعرها وعواطفها.

* * *

تنفيذًا لقرار الإفراج عن المعتقلين السياسيين تم ترحيل (أحمد) إلى قسم شرطة (كوم أمبو) تمهيدًا للإفراج عنه، ما أن خطى خارج القسم حتى هرولت نحوه (ونجى) صارخة بخليط من السعادة وعدم التصديق لتحتضنه بقوة كما لو أنها تخشى فقده من جديد، تركهما (مصطفى) يطفئان شوق السنوات الثمانية التي مضت وجسد كل منهما في مكان، لكن القلوب لم تبتعد أبدًا، بعد برهة التفت (أحمد) نحو (مصطفى) ليحتضنه، وهو يصيح:

ـ كبرت يا (مصطفى) واقتحمت عالم الرجولة.

قاطعته (ونجى) بفخر:

ـ لقد ولد (مصطفى) رجلًا مثل كل عائلة (جُلق).

عادا ليتعانقا من جديد، ليبتسم (مصطفى) في وجه أبيه:

ـ لم تتغير يا أبى، أحمد الله أنهم لم ينالوا منك.

تنهد (أحمد) في مرارة:

ـ كانت تجربة مؤلمة على النفس، مرهقة للروح، كاسرة للفؤاد يا ولدى، كدت أبكى مرات عدة، لكنك منعت دموعي من الميلاد...

عادت (ونجى) لتقاطعه مرة أخرى:

ـ لقد مرَّت هذه الفترة، وانتهت هذه التجربة من فضل الله، ونسأله سبحانه ألا تعود هذه الأيام أبدا.

أسند (مصطفى) والده على يده، وساروا مبتعدين عن المكان:

ـ فلنذهب الآن يا أبتِ إلى الدار، ونجلس سويا كثيرا لنتحادث ونحكى عن كل شيء.

احتلت اللهفة صوت (أحمد):

ـ أين (إبين) و(دهيبة) لماذا لم يحضرا معكما؟

أطرقت (ونجى) مع ذكر (إبين)، فتدخل (مصطفى) مسرعا وعلى وجهه ابتسامة:

ـ لقد تزوجت (دهيبة) من (عبد الله الطاهر) ولديهما ولدان الكبير (الطاهر) والصغير (أحمد).

انفرجت شفتا (أحمد) عن ابتسامة بعرض وجهه:

ـ بسم الله ما شاء الله، بارك الله لهما ورزقهما سعادة لا تنتهي، إذن لقد أصبحت جدًّا، كلي لهفة لرؤية أحفادي، لكن لم تجيبي، أين (إبين)؟

توقف (مصطفى) عن المسير ونظر إلى والده:

ـ إنه مع جدتي يا أبي.

الشتات

(١٤)

الشعب يريد إسقاط النظام، الشعب يريد إسقاط النظام، عيش، حرية، عدالة اجتماعية، عيش، حرية، كرامة إنسانية.

انساب نهر البشر في الطرقات كالفيضان، مزيحا معه كل شعور بالخوف، والاستسلام، جارفا في طريقه كل طغيان، مغرقا كل ظلم، لم يستطع غول القهر أن يمنع الهتافات التي رددها (عمر مصطفى جُلق) مع الآلاف في شوارع القاهرة، التي لم تكن تزلزل جنبات الشوارع والميادين وحسب، بل أصابت نظام الحكم نفسه في مقتل، جعلته يترنح، يتخبط، يتداعى، ثم يتوحش ويكشف صراحة عن أنيابه ومخالبه التي حاول مرارا أن يخفيها، لم يكره الحاكم وحاشيته هذه المظاهرات إلا لأنها فضحت ضعفهم، فضلا عن فضحها للوجه القبيح فيهم، رأى (عمر) أن آخرين كرهوها، لكن من يكره الحق؟

من يبغض رفع الظلم؟ من يحقد على الثائر إلا الصامت والمنحني أمام الطغيان، فئات عدة حاربت المتظاهرين، لا لشيء، إلا لأنهم عروا سوءة النفوس المستسلمة والصاغرة الجبانة.

- من قال أنها ثورة؟ غدا سيُحكِم الرجل قبضته من جديد على زمام الأمور، وساعتها لن نعرف في أي المعتقلات أنت.

هكذا عبر (معتصم) لشقيقه الأكبر (عمر) عن رأيه متهكما من أخيه، نظر (عمر) إليه بتمعن:

- حقيقة أنا لا أفهم منطقك، بدلا من أن تشاركنا محاربة الديكتاتورية أراك تكره ما نفعله.

جلس (معتصم) على الأريكة وأسند ظهره:

- يا شقيقي العزيز، الأمور ليست من هذه الزاوية أراها، بل من زاوية المنطق، الداخلية قبضتها تحكم السيطرة على كل شيء في البلاد، تحصى عليكم أنفاسكم، لديها جيش جرار من عتاد ورجال، فهل تظنها تترك النظام يهوى كي تهوى معه إلى الجحيم؟

جلس (عمر) قبالة أخيه:

- الصراع هنا ليس صراع بقاء يا (معتصم) بل هو صراع حق وباطل، وما أوضح الفرق بينهما.

تنهد (معتصم) في ضيق وهو يستأنف الحوار مع أخيه:

- دائما كان الصراع بين الخير والشر صراع بقاء، لكن النتيجة محسومة سلفا، لأن هذا الصراع أبدى لا ينتهي، سيستمر إلى أن تقوم الساعة،

أنت محام وتدرك ذلك أكثر من غيرك، كم قضية ترافعت فيها، وكم من ملايين القضايا حول العالم. الحق في مواجهة الباطل دائما بلا نهاية، لا الخير يموت، ولا الشر أيضا، بقاء كل منهما لازم كي يبقى الآخر، هكذا أرى الحياة، عملة من وجهين لا يمكن أن تطمس وجها، وتبقى العملة صالحة للتداول.

بدا (عمر) على شفا الحدَّة وهو يعلق:

ـ هذا ادعى بك أن تختار جانبا لتحارب في صفوفه.

أجاب (معتصم) وهو يهز كتفيه في لامبالاة استفزت (عمر):

ـ ولِمَ؟ وهذه الحرب أبدية، لماذا يجب أن أشارك في النزاع طالما لن ينتهي، فلأبتعد عن كلا الجانبين، وأكتفي بمشاهدة النتائج، فمن العبث أن تفنى في صراع لن ينتهي.

نهض (عمر) وسيطر على انفعالات صوته:

ـ لو لم أكن متأكدا أن دماء جدك (أحمد جُلق) رحمه الله تجرى في عروقك لما تعجبت من موقفك هذا، هذه العائلة طالما وقفت إلى جانب الحق، فلماذا تختار ألا تكون كذلك؟ إذا كانت الحياة كالعملة كما تقول، فمعنى هذا ألا مكان للمحايدين فيها، فلا مكان إلا على أحد وجهي العملة، من يقف على الحياد؛ يكون خارج العملة، بلا قيمة.

دخلت عليهما (أمينة) زوجة (عمر) تحمل صينية عليها أكواب من عصير، وهي تبتسم لزوجها وأخيه:

ـ لا تتعب نفسك، كلانا يعرف (معتصم) منذ طفولته، لن يقتنع بكلماتك، لأنه ببساطة لا يهتم.

ابتسم (معتصم) موجها حديثه لزوجة أخيه وهو يقف ليتناول منها كوب العصير:

ـ لو لم يكن أبيكِ (الطاهر) ابن عمتي (دهيبة) التي أحبها أكثر من جميع أفراد هذه العائلة المجنونة، لغضبت منك.

اتسعت ابتسامتها أكثر، وهي تجلس بجوار زوجها:

ـ لا تجروء، فلا أحد يغضب من أهله.

تدخل (عمر) معلقا:

ـ دعنا من هذا الآن، غدا إن شاء الله بعد صلاة الجمعة سيكون يوما مشهودا في هذا الصراع الذي ترفض الانضمام إليه، لقد أطلقنا على هذا اليوم اسم (جمعة الغضب)، أتمنى أن أراك غدا بيننا.

هز (معتصم) رأسه يمنة ويسره محاولا إخفاء السخرية البادية في صوته:

ـ من يدرى؟ لعلى أتغير أثناء الليل، وأنضم إليكم في حلمي.

أعقب تعليقه بضحكة مجلجلة ثم أردف:

ـ تصبحون على خير، سأصعد إلى شقة أبيك الذي سيبدأ معي هو أيضا محاضرة حول نفس الموضوع، فدماء الوطنية تجرى في عروق كليكما بوفرة، وإذ فجأة تناسيتم نوبيتكم، وتذكرتم مصريتكم.

- ومن قال أنهم ينفصلان، مصريتنا ونوبيتنا وحدة واحدة لن تنفصل ولن تتبدل.

ابتسم (معتصم) في وجه أخيه وهو يهز رأسه تعجبا ثم غادرهم تاركا (عمر) يشيعه بنظرات غاضبة من موقف أخيه رغم محبته الجمّة له، تسائل في نفسه كيف يمكن ألا يرى شقيقه المشهد رغم وضوحه؟ لقد تربيا معا وكبرا معا في بيت الرجل الذي كره الظلم منذ طفولته. كيف تجرى في عروقهما نفس الدماء؟ هل يمكن أن يكونا حفيدين لـ(أحمد جُلق) الذي قضى زهرة شبابه في المعتقل لأنه قال (لا) ذات يوم؟، ظلت الأسئلة تعصف بذهنه حتى صرفه عنها تفكيره في يوم غد.

صعد (معتصم) إلى شقة أبيه (مصطفى جُلق) ليصدق حدسه بشأن محاولته فتح الموضوع معه، كان الأب يجلس في الصالة منتظرا ولده، سأله إن كان ينوى مشاركة أخيه يوم غد أم لا؟ وقبل أن يبدأ الجدل قبّل رأسه في محبة صادقة ثم دلف إلى حجرته لينام دون أن يسمح لهذا النقاش أن يفسد المحبة مع أبيه. مثلما يفعل في كل مرات غضبه.

(١٥)

ارتفعت الشمس إلى وسط السماء لتشهد تدفق ملايين من البشر في كل المحافظات تهتف بسقوط النظام، أمسك (عمر) بيد (أمينة) وصوتهما يهدر كغضبهما، وغضب الملايين التي تحيطهما في الطريق إلى ميدان التحرير، كل الشوارع أغلقت وتمركزت قوات الأمن المركزي في كل مكان، الطلقات تحصد أرواح بريئة لا ذنب لها إلا أنها تجرأت على الطاغية، قنابل الغاز أسالت من العيون دموع الفرحة لأنها ذاقت أخيرا معنى المقاومة، معنى التمرد على الظلم والقهر، تواترت الأخبار أن كوبري (قصر النيل) يشهد مذبحة حقيقية، أراد (عمر) أن يذهب إلى هناك، لكنه في طريقه إلى ميدان التحرير من ناحية حي (عابدين) هذا الحي العريق، الذي ولد وتربى فيه مع شقيقه (معتصم) ولا سبيل للوصول إلى الكوبري الآن إلا مرورا بالميدان المشتعل، شهد (عمر) سيل من دماء انساب على الطرقات؛ دفاعا عن الحق، فما زاده

ذلك إلا تصميما على مواصلة المسير، ازداد تمسكا براحة يد (أمينة) ليبثها الطمأنينة، نظر نحوها، فوجدها تبتسم له وهى تهتف بحماس (الشعب يريد إسقاط النظام)، اطمأن بوجودها، فزاد إيمانا بنقاء هدفيهما، ونبل نيتهما.

لم تغب شمس هذا اليوم قبل أن تشهد انسحاب يد الطاغية من مواجهة المتظاهرين، فيختفي جنود الداخلية وضباطها من الشوارع، ليثق الناس في الميادين أن مخاض الثورة قد اكتمل، وأن صرخاتهم ما هي إلا الصرخات الأولى لوليد الحرية الجديد، وقبل أن يرتاح الليل من معركة سيطرته على السماء؛ حتى احترق معبد كهنة فرعون، وهوى حزبه الذي طالما صوِّر له أو تصوَّر معه أن له ملك مصر، وهذه الأنهار تجرى من تحته، وأخيرا تبدَّل الحال، وبدأ صرير جنزير الدبابات يُسمع في الشوارع. في مشهد لم تره مصر منذ غضبة الأمن المركزي في الثمانينات، لكن سرعان ما طار في الميادين هتافات تضع الجيش في خانة الشعب، ولا أحد يدرى وقتها هل قَبِل الجيش هذا الشعار بعد أن نادى به الثوار؟ أم أنه تبناه قبل تحركه من ثكناته؟

سرعان ما بسط الليل نفوذه وسطوته، فافترش الكثيرون أرض الميدان لرعاية نبتة الثورة التي تنمو. أصر (عمر) أن تعود (أمينة) إلى المنزل ليطمئن عليها أكثر، وأن يبيت ليلته مع تفتح زهور الحرية بين زُرّاعها؛ مستعدين لمزيد من الدماء لريها حتى يشتد عودها، وتنبت ثمرتها.

عادت (أمينة) إلى البيت وقلبها متعلقا بالميدان وحراسه، ما

أن دخلت الشارع حتى لمحت حماها (مصطفى) في شرفته يشير لها أن تصعد إليه بسرعة. ففعلت، عاجلها بالسؤال عن (عمر) وأخبرته بنيته في المبيت بالميدان، دعا له بالنصر والثبات، وأصر أن تبيت (أمينة) في حجرة زوجته (سيلة) ليطمئن عليها، وبات هو في الصالة أمام التلفاز يتنقل بين قنواته ليتابع الحدث بتفاصيله، حتى لاحت علامات الفجر الأولى، لا يدرى لماذا تذكر لحظات الفجر الذي أشرق عليه، وهو في المركب الشراعي الذي غادر به النوبة القديمة. منذ سبعة وأربعين عاما، هل تكون هذه الثورة هي المركب الذي يعود به من جديد، أم يكون المركب الذي يزيدهم بعدا على بعد؟ رأى في ذاكرته ملامح أبيه، وهو يحتضر، ويوصيه أن يعود إلى النوبة. وإن لم يفعل، فليوصي أولاده أو أحفاده، أو أحفادهم؛ حتى يعودوا يوما إلى النبع. كان يرى أن مصر تعود إلى حريتها، فهل سيعود يوما إلى النوبة؟

تسارعت الأيام والأحداث حتى زاد ترنح النظام، ثم كانت النتيجة التي رآها المرابطون في الميادين حتمية وتنحى رأس النظام عن عرش البلاد، الذي ظن كثيرون أنه لن يتخلى عنه تحت أي ظرف، عمت الفرحة كل مكان، وخرج الناس في الشوارع للاحتفال، ووقف (عمر) في ميدان التحرير لمشاركة (أمينة) لحظات الانتصار، وبعد منتصف الليل بقليل عادا إلى شقتهما.

قابل (مصطفى) ولده (عمر) بابتسامة واسعة، واحتضنه بقوة مهنئا له، أما (معتصم) فكالعادة لم يكن مهتما، لكنه ابتسم لأخيه وهنئه.

(١٦)

ابتسم (معتصم) في وجه أخيه قائلا:

- قضية النوبة؟!! هل أصبحت النوبة قضية؟ لا تخترع قضية وهمية تحارب من أجلها فتصبح أشبه بـ(دون كيشوت) يا شقيقي الحبيب.

رد (عمر) بحماس يسابق كلماته:

- وهل لنا من قضية أهم يا شقيقي؟ أليست النوبة هي الأرض التي ضمت حضارتنا منذ فجر التاريخ؟ ونحن الآن ممنوعون من العودة إليها، أليست تلك قضية كبرى تستحق أن تكرس لها وقتك ومجهودك؟، أليست تلك قضية تستحق أن تكترث لها؟، إنها الهوية يا شقيقي، الهوية التي إذا فقدناها فقدنا أنفسنا، في هذه الحالة نحن لا نحارب طواحين الهواء يا أخي، بل نتمسك بكينونتنا نفسها.

جاءت كلمات (معتصم) مغلفة بالملل، وعلى وجهه ترتسم أمارات الفتور:

- أنا لم أرى النوبة التي تتكلم عنها، وحتى أبوك نفسه الذي يسايرك بكل حماس غادرها وهو في الرابعة عشر من عمره، ولا يكاد يذكر عنها شيئا بعدما تجاوز الستين، فأي نوبة تتمنون العودة إليها، أنا لا أهتم، ولا أتمنى العودة مثلكما، وفى الواقع أنا أكره النوبة التي منحتني بشرة سوداء جعلتني مثار سخرية زملاء المدرسة، أم تراك نسيت هذه الأيام؟، النوبة التي جعلت لهجتي تنتزع الضحكات الهازئة من الجميع، كوني نوبيا جعل كل الناس تناديني (أوسمانا «عثمان») بشكل ساخر وكأنها سبة، أما الهوية التي تتحدث عنها فلا تعنيني في شيء، فكل إنسان يصنع هويته الخاصة، الهوية ليست وطنك ولغتك ودينك، الهوية الحقيقية هي طموحك ونجاحاتك، هويتي هي مستقبلي الذي أسعى لتجسيده في عالم الواقع، لا تلك الخيالات التي تراودك.

شعر (عمر) بصدمة كبيرة من كلمات أخيه فتضاربت مشاعره بشكل أربكه، وهو يسمع هذه الكلمات من شقيقه الذي تربى معه طوال هذه السنوات، وكأنه لم يعرفه من قبل، لأول مرة يعلن (معتصم) أنه يكره نوبيته ولا يحب سماره، لأول مرة يتحدث إلى أخيه الأكبر بهذه الطريقة الفجة المليئة بالمرارة، لو كان سمع هذه الكلمات نفسها من شخصا آخر لكرهه فورا، لكنه يحب (معتصم) حبا جما، وهو أيضا يحب النوبة ولا يقبل هذه الكلمات عنها، زادته أفكاره اضطرابا فلم يتمكن من التعليق أو الرد على حديث (معتصم) من صدمته، فاكتفى بهز رأسه لعله يطرد ما سمعه الآن من ذاكرته ثم انصرف عائدا إلى شقته، وقلبه محملا بمشاعر الأسى، تشابكت

حواجبه في غضب، وتقلصت عضلات وجهه حزنا، وشعر بقلبه تتثاقل نبضاته حزنا من كلمات أخيه.

* * *

بعد شروق شمس اليوم التالي بعدة ساعات كان (معتصم) يعبر باب المدرسة الدولية التي يعمل محاسبا بها، يصل بعد الموعد كالعادة، لكنه يحرص على ألا يصل تأخيره إلى الحد الذي يثير غضب المدير، عند عبوره من البوابة المعدنية الضخمة يلمح (شيماء) تبدو من نافذة أحد الفصول يراها بعين المتيم، فلا تبدو لها في نظره عيوب، ترتدي حجابا عصريا بلا بهرجة، وملابس بسيطة لكنها متناسقة وأنيقة، يصدر صفيرا خافتا يحمل نغمة خاصة، كأنها إشارة متفق عليها، تعرفها على الفور، فتلتفت نحو فناء المدرسة مبتسمة، ثم تعود بوجهها إلى التلاميذ الصغار، لكن يدها تشير إليه بشكل خفي، يرد لها الإشارة، ويتجه نحو مكتبه سعيدا.

يفتح جهاز الكمبيوتر، يتصل بعامل البوفيه ليطلب النسكافيه المعتاد حتى يبدأ يومه، بعد انتهاء الحصة الأولى، تتجه في خطوات تحكم الشوق في سرعتها فاقتربت من الهرولة، تطرق باب مكتبه والابتسامة تسيطر على وجهها، حينما يراها تتهلل ملامحه، يقوم مسرعا من خلف المكتب ليتجه إليها، يتبادلان حديثا مبتسما هامسا سريعا، يقطعه جرس بدء الحصة الثانية، فتهرول مسرعة نحو الفصل، ويتبعها بنظراته حتى تختفي.

(١٧)

تقدم (معتصم) خطوات متمهلة نحو أمه (سيلة) ضئيلة الجسم، حنطية البشرة، دائما ترتدي الثوب النوبي التقليدي، نظرت إليه وابتسمت ابتسامة أودعتها كل مخزون الأمومة الصافي لديها، كانت ابتسامتها دعوة للاقتراب، قَبّل يدها ثم مس ظاهرها بجبهته، ربتت كتفه بحنان بالغ، ثم جذبته ليجلس جوارها:

ـ أوحشتنى يا ولدى، منذ زمن لم تأتى للكلام معي، هل وجدت حافظا آخر لأسرارك؟

ابتسم في خجل:

ـ كبرت يا أمي، وأخشى أن يزعجك كلامي.

ـ تعرف يا ولدى كم أحبك، ولا يمكن أن يزعجني حديثك.

أطرق (معتصم) قليلا ثم أخذ شهيقا عميقا ليسكن اضطراب

نفسه، شعرت أمه أن هناك ما يهمه، ربتت ظهره وسكن الاهتمام ملامحها:

ـ ما لك يا ولدى؟

نظر (معتصم) لعيني أمه، وكأنه يستمد من طيبتها شجاعته:

ـ أريد أن أتزوج يا أمي.

تهلل وجه (سيلة) فرحا واحتلت الابتسامة وجهها، لكنها سرعان ما تجهمت:

ـ وهل أمر زواجك يستلزم كل هذا القلق والاضطراب الذي يسكن ملامحك؟

حاول (معتصم) أن يهرب بنظراته وهو يتصنع الابتسام:

ـ أبدا يا أمي، إنما هو الخجل.

ابتسمت (سيلة) في ود، وربتت ظهر (معتصم):

ـ أنا أحفظك أكثر مما تظن يا صغيري. من العروس؟

تردد (معتصم) في الإجابة، فنهض ليهرب من نظرة أمه:

ـ إ... إ... إنها زميلة لي في العمل.

ـ هل نعرفها؟

هز رأسه نفيا:

ـ لا.

نهضت (سيلة) لتقف في مواجهته:

ـ كيف هذا؟ ما اسمها؟

ـ شيماء.

بدت الحيرة على وجه الأم لمدة ثوان ثم سكنت ملامحها، وبدا أنها بدأت تستوعب الأمر، لذا سألته:

ـ هل هي نوبية؟

هز (معتصم) رأسه نفيا، فظهر الجزع على وجه الأم:

ـ لكن يا ولدى أنت تعرف عاداتنا الـ...

قاطعها (معتصم):

ـ لكنى أحبها يا أمي، ولن أتزوج غيرها.

ظهر الجزع على وجه (سيلة) وتجلى في صوتها:

ـ والدك لن يوافق وأنت تعرف هذا.

انحنى عليها ممسكا كتفيها، متضرعا:

ـ لهذا أطلب مساعدتك كي أقنع أبى.

جلست (سيلة) مرة أخرى بعد أن شعرت أن قدميها لا يقويان على حملها من هذه المفاجأة غير السارة:

ـ أنت تطلب المستحيل يا ولدى، سيكون أسهل أن تقنع الجبل أن يتحرك من موضعه.

طأطأ (معتصم) رأسه وتجهمت ملامحه، هم أن ينصرف فأمسكت يده:

ـ اسمع يا ولدى... هذه الزيجة ستتسبب في كم من المشكلات لن نقدر على مواجهته، أنا لا أوافق على هذا الأمر، والدك سيقيم الدنيا ولن يقعدها قبل أن تصرف نظر عن هذه الفتاة، ربما يتطور الأمر، وتقاطعنا العائلة لو أننا خضعنا لرغبتك هذه.

صمت (معتصم) ولم يجب، خرج من الغرفة، وهو لا يدرى ماذا يقول، كان يتوقع هذا الرد، لكنه ظن أن لديه قدرا من التأثير على أمه.. ربما ساعده على ضمها لصفه لتكون معينا له أمام والده، فجأة وجد نفسه يطرق باب شقة شقيقه (عمر)، فتحت له (أمينة) وحيته بابتسامتها الدائمة، لكنه نظر إليها ولم يجب فسألته:

ـ ما بك يا (معتصم)؟ هل أنت بخير؟

لم يدرِ بماذا يجيب، أراد أن ينصرف، لكنها استوقفته، أدخلته ونادت (عمر) ليعرف ما الأمر.

* * *

بدا وجه (عمر) خاليا من الدماء بعد ما سمعه من شقيقه، ضمَّ هذه الصدمة لمثيلتها بعد آخر حوار دار بينهما منذ بضعة أيام، أطرق مفكرا يبحث عن كلمات مناسبة يرد بها على شقيقه:

ـ هل تدرك خطورة ما قلته للتو؟

عقد (معتصم) ما بين حاجبيه إصرارا على رأيه:

ـ لست أرى الأمر بهذه الخطورة، فلست أول نوبيّ يرغب في الزواج من «جوربتية»، فعلها قبلي كثيرين.

ـ لم يكن أي منهم ابن (مصطفى جُلق).

ـ وما المختلف في ذرية (جُلق) ألسنا بشرا كالآخرين؟

رد (عمر) في حدة:

ـ طبعا نحن بشرا كالآخرين، لكننا نوبيين، وبالتحديد من آل (جُلق) وهنا الاختلاف، فنحن لا نتزوج إلا بنات العمومة، ومن فعلوها قبلك فأنت تعرف جيدا حجم المشكلات التي واجهوها، تعرف جيدا كيف يتعاملون بشيء من جفاء حينما يسافرون البلد، وكأنهم أغراب لأنهم اختاروا أن يبتعدوا عن جذورهم، نسمى أبنائهم «نص بغلة» و....

قاطعه (معتصم) في نفاذ صبر واضح:

ـ أنا أكره هذه العادات، نحن لا نعانى من عنصرية الآخرين، لأننا في الحقيقة عنصريين أيضا، وربما أكثر منهم، لماذا نراهم أقل منزلة؟، ولماذا يرونا جنسا آخر؟، ما الذي يميزنا عن باقي البشر لنصمم على هذا الانغلاق، وضرورة الزواج من دائرة العائلة، أو القبيلة، ومع بعض التساهل تكون الزيجة خارج هذا الإطار، لكن دائما ما بين نوبيين، أما غير ذلك فهي خطيئة لا تغتفر، أي منطق هذا الذي يحكم عقولنا يا رجل؟

زفر (عمر) في ضيق:

ـ هل كانت هذه أرائك قبل أن ترغب في الزواج من فتاة غير نوبية؟

نظر إليه (معتصم) في دهشة:

ـ تعرف جيدا أنى كنت أكره الحديث والتفكير في هذا الأمر من الأصل.

سكن الهدوء صوت (عمر) وهو يضع يده على كتف أخيه:

ـ اسمع يا (معتصم) أنا لن أقدم لك العون الذي تنشده في محاولتك هذه للزواج من «جوربتية»، لكن حفاظا على بقاء علاقتنا نقية كما هي، فلن أكون حجر عثرة في طريقك، يكفيك ما ستلاقيه من أبيك حين يعرف.

للمرة الثانية يشعر (معتصم) بالهزيمة، لا يعرف كيف سيواجه والده دون دعم من أحد أفراد أسرته، يدرك جيدا حجم العاصفة التي ستثور، لا يشك أبدا في انفجار بركان الغضب حينما يعرف أبوه برغبته في الزواج من فتاة غير نوبية، أو كما يسمونها «جوربتية».

كان يدرك أن العادات والتقاليد النوبية تحتم أن يتم التزاوج فيما بينهم حفاظا على بقاء العرق النوبي، لو أن كل النوبيين تزوجوا من غير النوبيين لأنقرض العرق النوبي في غضون سنوات قلائل، لكنه لم يقتنع بهذا السبب على الإطلاق، ومع خسارته تأييد أمه أو أخيه، خرج من المنزل يريد أن يختلي بنفسه حتى يعيد ترتيب أفكاره،

لعله يجد طريقة ما تساعده على المواجهة. اتجه مباشرة نحو كورنيش النيل حتى يجد صفاءً ذهنيا يصل به إلى حل.

* * *

خطت (شيماء) خطوات متمهلة داخل عيادة والدتها (سلوى نور الدين) حينما لمحتها (ماجدة) المساعدة. ابتسمت لها ووقفت ترحب بها بود كبير، بعد تبادل القبل والاحتضان سألتها (شيماء):

ـ هل هناك مريضة بحجرة الكشف؟

ـ نعم، لكنها على وشك الانتهاء، سأبلغ الدكتورة بوجودك.

هزت (شيماء) رأسها بتفهم وجلست في أقرب مقعد، تفحصت وجوه المريضات، بحثت في ملامحهن عن سعادة ما بعد الزواج فلم تجد ما كانت تظن، كانت آلام الحمل تسيطر على المتواجدات، ربما تغلب الألم على السعادة وربما تختفي المشاعر مع تحمل المسئولية، هل الفقر هو السبب؟ أو أن الـ....

ـ تفضلي يا أستاذة (شيماء) الدكتورة في انتظارك.

هكذا انتزعتها (ماجدة) من أفكارها، طرقت باب حجرة الكشف فطالعها وجه جاد من خلف نظارة طبية، يحاول أن يبتسم متمثلا دور الأم:

ـ أهلا يا (شوشو) تفضلي يا حبيبتي.

حاولت (شيماء) أن تبدو طبيعية:

ـ أهلا يا دكتورة، كيف حال الزيادة السكانية على يدك؟

لم تفهم الأم دعابة ابنتها فجاءت نظراتها متسائلة:

ـ أكيد لم تأتِ إلى هنا للسؤال عن الزيادة السكانية، ما الأمر يا (شيماء)؟

حاولت أن تبحث عن كلمات مناسبة تجيب بها سؤال الأم، فلم تجد غير الصمت، فعادت الدكتورة (سلوى) تسأل:

ـ خير يا (شيماء) ما الأمر؟، وأرجو أن تراعى انتظار مريضات بالخارج.

هربت الدماء من وجه (شيماء) فخرج صوتها باهتا ضعيفا:

ـ هناك موضوع كنت أود أن أعرف رأيك فيه.

أخيرا أشارت لها والدتها بالجلوس وهى تسألها:

ـ وما هو؟

جلست (شيماء) على حافة الكرسي:

ـ زميل بالعمل... يرغب في لقاء والدي.

نزعت (سلوى) نظارتها:

ـ لأي أمر؟

ازدردت (شيماء) لعابها بصعوبة قبل أن تجيب:

ـ الـ... ارتباط.

انسحب التجهم أخيرا من وجه الدكتورة (سلوى) لكن لم ترتسم على وجهها أي انفعالات أخرى بدلا منه، وكأنها فقدت القدرة على رسم أي مشاعر إيجابية فوق ملامحها كي تناسب هذه اللحظة، وعادت تسأل من جديد:

ـ هل هو مدرس زميلك؟

أسرعت (شيماء) بالإجابة:

ـ بل هو محاسب في المدرسة.

أمعنت (سلوى) النظر في وجه ابنتها كي تقرأ انفعالاتها، وسألتها في هدوء:

ـ ما هي إمكانياته؟

ـ ليس فقيرا، لكنه ليس غنيا أيضا، نستطيع القول أنه إلى حد ما ميسور الحال، وراتبه في المدرسة جيد جدا.

أعادت (سلوى) وضع نظارتها:

ـ عظيم، أين تكمن المشكلة؟

من جديد يحتل اللون الأصفر وجه (شيماء) فأمها دائما تصيب قلب الموضوع بشكل مباشر، حاد، سريع، عقليتها العملية تفرض عليها ألا تدور حول الهدف، بل تتجه إليه فورا، حاولت شيماء أن تبدو هادئة:

ـ ومن قال أن هناك مشكلة؟

شبكت (سلوى) يديها ووضعتهما أمامها على المكتب:

ـ ملامحك... طريقتك... مجيئك إلى أولا قبل أبيك رغم أنكما متقاربان أكثر مما أنت وأنا عليه، وأظنك بدأت الحديث معي لضمان النتيجة التي ترغبين، وكأنما تختبرين نقطة المعارضة لهذا الزواج لاجتذابي إلى صفك مبكرا أو تحييدي على أسوأ الفروض.

احترمت (شيماء) ذكاء والدتها ولم ترغب في مزيد من المراوغة:

ـ هو نوبي... أسمر.

نزعت الدكتورة (سلوى) نظارتها بحدة هذه المرة وتفحصت ملامح ابنتها في حدة:

ـ دعينا نؤجل حديثنا لحين عودتي إلى المنزل، لدى مريضات ينتظرن بالخارج، وأظن أننا لن نستطيع إقناع آلامهن بأهمية موضوعك.

وقفت (شيماء) فورا، وخرجت من العيادة متجهة إلى المنزل، في الطريق اتصلت بـ(معتصم) فجاءها صوته يحمل إجابة سؤالها قبل أن تسأله، فلم تشعر بالطمأنينة التي كانت ترغبها من مكالمته:

ـ كيف سار الحال معك؟

تنهد (معتصم):

ـ ليس كما تمنيت، وما الذي حدث معك؟

لوحت بيدها في الهواء بلا معنى:

ـ نفس النتيجة.

جاءها صوت (معتصم) مليئا بالجدية:

ـ كلانا لديه معركة اتفقنا على النصر فيها، كانت هذه الجولة الأولى فقط، لا مجال للاستسلام، خاصة بعد أن بدأنا السير في الطريق بالفعل.

ـ تنتظرني جولة أخرى عند عودة أمي من العيادة.

قالتها بصوت مضطرب مما دفع (معتصم) للقول:

ـ تشجعي إذن.

ـ وما الذي تنويه أنت؟

عادت الجدية والتصميم إلى نبرات صوته:

ـ أنا في طريقي للمنزل عازما على مناقشة الأمر مع أبى الليلة، وهذه ستكون جولتي الأولى الحقيقية.

ـ إذا لم أتمكن من مهاتفتك الليلة، فلنكمل حديثنا غدا في المدرسة.

ـ اتفقنا.

ـ تصبح على خير.

ـ اعتنى بنفسك.

ـ لا إله إلا الله.

ـ محمد رسول الله.

(١٨)

ما زال (مصطفى جُلق) يحتفظ ببريق عينيه الذي لمع للمرة الأولى على ظهر المركب الشراعي، الذي غادر به النوبة صبيا، وكانت تلك رحلته إلى أرض الرجولة وتحمل المسئولية، دائما كان هذا البريق سببا في خوف (معتصم) من غضبة والده لأي سبب، فحين ينطفئ هذا اللمعان في عين (مصطفى)؛ تحتل مكانه رياح الغضب الهادر التي تنجرف أمامها كل الأشياء، ما أن أنهى (معتصم) كلامه مع أبيه، حتى انطفئ هذا البريق فورا، تصاعدت الدماء في بياض عينيه حتى فزع (معتصم) وارتعش جسده الشاب، واختلجت نبضات قلب العاشق، وقف (مصطفى) فاضطر (معتصم) للوقوف أيضا احتراما لأبيه الذي تكلم بصوت يأتي من أعماقه فبدا وكأنما يخرج من كهف قديم في جبل مقفر:

ـ سأمنحك عشر ثوان لتخبرني أن أذناى إنما تخدعاني، أنى أرهف بشيخوختي، وأصابنى الخرف، وأن تلك الكلمات التى توهمتُ الآن أنك قلتها لم تخرج حقا من فمك.

سكنت نظرة الرجاء عين (معتصم)، وهو يحاول أن يبدو متماسكا:

ـ لكن يا أبى....

قاطعه (مصطفى) بصوت حاد، والزبد يتطاير من شدقيه وعيناه تجحظان:

ـ لا تنطق كلمة واحدة قبل أن تقول إنك لم تتفوه بهذه الكلمات البلهاء، لا تستجلب غضبى، فلن تتحمل ما ستلاقيه منى لو أنك صادق فيما قلت.

صمت (معتصم) وهو ينظر في فزع حقيقي لوجه أبيه، كان يتوقع عاصفة وصوتا عاليا، لكن ما بدا من أبيه الآن أكثر رعبا له من أسوأ كوابيسه، تراجع خطوتين للخلف، تردد ما بين مغادرة الغرفة، أو الوقوف صامتا، جلس (مصطفى) وهو ينظر لولده بعين تتقد بشرار الغضب، وتتجمع فيها سحب الحزن التي حرص ألا تمطر أبدا أمام ولده، الذي يراه عاقا أو مجنونا:

ـ اسمع يا (معتصم) ما تطلبه يفوق المستحيل صعوبة، ستجدني صخرة صماء لا تلين، ولا تتبدل، لن يتغير موقفي مهما فعلت، حتى مماتي.

نجح (معتصم) أخيرا أن يسيطر على انفعالاته، ويمنح صوته

هدوءا قد يساعده في التأثير على أبيه:

ـ أنا لم أكن عاقا يوما يا أبتِ، ولن أكون، رحلتي لإقناعك لن تنتهي قبل مباركتك لزواجي، وإن استلزم الأمر عمري بأكمله.

نظر (مصطفى) إلى ولده طويلا، ملأ صدره بالهواء، رفع ذقنه قليلا:

ـ ستموت أو أموت قبل هذا بزمان يا فتى، سيفنى الكون وتختفي الحياة، وتنهار السماء فوق الأرض، ولن أزوجك «جوربتية» يا (معتصم).

اقترب (معتصم) من أبيه:

ـ سأضرب عن الزواج إلا منها يا أبى.

مد (مصطفى) عنقه للأمام ليقترب وجهه كثيرا من وجه (معتصم):

ـ إذن ستقضى عمرك زاهدا أو راهبا يا ابن أبيك.

اطرق (معتصم) ثم استأذن وغادر حجرة أبيه إلى غرفته وأغلق بابها من الداخل وأخذ يدور في أرجائها دوران الأسد الحبيس في قفص الحديقة، لا القفص يحد حركته، ولا الأسد ييأس عن الحركة، كانت شجرة عناده تتفرع وتتشابك أغصانها، وتتساقط ثمارها في جنبات عقله فتزيد اشتعال غضبته، وتزيد حركته في الغرفة المغلقة، وهو يضرب راحة يسراه بقبضة يمناه.

* * *

ما أن خرج (معتصم) من حجرة أبيه؛ حتى نادى (مصطفى) زوجته (سيلة) التي عرفت العاصفة التي تهب في صوت زوجها، فأتت إليه مهرولة، وجسدها ينتفض، أغلقت الباب خلفها، واقتربت منه قلقة من ردة فعله التي تتوقعها مخيفة:

ـ هل كنتِ تعرفين أن (معتصم) يرغب في الزواج؟

أومأت برأسها بالإيجاب دون أن تجد لديها القدرة على الرد، فزادته إجابتها عنفا في صوته:

ـ وهل كنتِ تعرفين أنه يرغب في الزواج من فتاة «جوربتية»؟

عادت تومئ برأسها أن «نعم» والدماء تنسحب من جسدها فزعا من (مصطفى) الذي جذبها من يدها برقة رغم غضبه ليجلسها بجواره:

ـ متى عرفتِ يا (سيلة)؟

ازدردت لعابها في قلق:

ـ والله يا «هوى» ما عرفتُ إلا منذ ساعات ولم أوافقه أبدا وحذرته من المضي في طلبه.

ارتفع صوت (مصطفى) من جديد، وهو يهز سبابته أمام وجه (سيلة):

ـ لكنه رغم ذلك جاءني منذ قليل، وكرر ما أسمعك على مسامعي.

حاولتْ أن تُلطف الأجواء فابتسمتْ في وجه زوجها ابتسامتها التي طالما عشقها لأنها تشبه ابتسامة أمه (ونجى) في طيبتها وحنانها:

ـ لعله طيش الشباب يا حاج، وأظنه سيتراجع بعد أيام قلائل.

جلس (مصطفى) على سريره ووضع يديه على فخذيه:

ـ هل تضحكين عليّ أم على نفسك يا (سيلة)؟ تعلمين مثلما اعلم أنه ورث عناد آل (جُلق)، ولن يغير رأيه حتى لو كُسرت رأسه.

تبسمت رغم عنها وهى تقول:

ـ الولد سر أبيه.

كان في حيرة من أمره وهو يجيبها:

ـ لكن (معتصم) ليس كـ(عمر)، فى طفولته كان يكره أن يسافر النوبة فى الإجازات إلا كى يقابل (دهيبة) بعكس أخيه الذى أحب النوبة وعشقها منذ صغره، لم يتحدث أبدا باللغة النوبية حتى نسيها، وكأنها يرفضها فى نفسه، وإن كنا شاركناه هذا الخطأ.

مرة أخرى وجدت (سيلة) نفسها مضطرة أن تخفف من وطأة الموضوع، فأخذت تلين الحديث لـ(مصطفى):

ـ الزمن يتغير يا حاج، وشباب هذه الأيام يختلفون عن أيامنا.

زفر (مصطفى) في يأس:

ـ لعل الله يحدث في الأمر أمرا يا أم (عمر).

❊ ❊ ❊

نظر المهندس (محمد الفقى) إلى ابنته (شيماء) بعد أن أنهت زوجته الدكتورة (سلوى) كلامها بشأن ما أخبرتها به ابنتها في العيادة، لم ترتسم ملامح الغضب على وجهه كأمها، نقل بصره بينهما ثم سأل ابنته:

ـ أتحبينه؟

ابتسمت وهى تحنى رأسها، وتجيبه فى صوت أقرب إلى الهمس:

ـ نعم.

ظهرت نبرة الجدية في صوت (محمد):

ـ هل ستجدين في نفسك القدرة على تحمل طبائعهم والتأقلم مع عاداتهم وتقاليدهم التي تختلف حتما عما تربيتي عليه؟

صرخت (سلوى) في حدة:

ـ تسألها وكأنك موافق يا باشمهندس!

أجابها (محمد) في هدوئه المعتاد:

ـ لم اتخذ قراري بعد يا دكتورة، ما زال الأمر لم يحسم عندي، فقط أتناقش مع ابنتي؛ كي أتمكن من تكوين صورة واضحة قبل اتخاذ القرار الأخير.

ارتفع حاجبا (سلوى) وسكنت الدهشة نظراتها إليه:

ـ أي قرار هذا الذي لم تتخذه بعد يا (محمد)؟ الأمر واضح كالنهار في صيف الصحراء، (شيماء) لن تتزوج من هذا الأسود.

نظرت إليها (شيماء) في غضب، وهمت أن تعترض لكنها تراجعت فى اللحظة الأخيرة، بينما كانت نظرات (محمد) تحمل العتاب أكثر مما تحمل من غضب:

ـ لم أعهدك هكذا أبدا يا (سلوى)، منذ متى تستخدمين هذا اللفظ في وصف الناس؟ متى أصبحتِ عنصرية إلى هذا الحد يا دكتورة؟

ارتبكت (سلوى) وكأنما ضبطها زوجها بجرم تخجل منه:

ـ أنا... الموضوع... لا علاقة لزواج ابنتي بالعنصرية، هذا الرجل أتى من بيئة وثقافة لا تتناسب مع بيئتنا وثقافتنا.

ظهر شيء من الدهشة على وجه (محمد) فسألها وكأنما يتحداها:

ـ وما هى بيئتنا وثقافتنا يا دكتورة؟ وفيما تختلف عن غيرها من البيئات والثقافات؟ على الأقل هؤلاء الناس ما زالوا يتمسكون بهويتهم ولغتهم وملابسهم، يحتفظون بعاداتهم وتقاليدهم رغم الغزو الفكري الذي يأتينا من كل حدب وصوب، ويقتحمنا في كل ثانية، حتى نجح فى زحزحتنا جميعا عن موروثاتنا، وأجبرنا أن نصم الكثير منها بالتخلف.

كادت (سلوى) تصرخ من الغيظ:

ـ لكنهم مختلفون يا (محمد)، لا نعرف عنهم شيئا فى الواقع و...

قاطعها (محمد) بعد أن ظهرت على وجهه علامات الانتصار فى المناقشة:

ـ تلك هى مشكلتِكِ إذن، الاختلاف، ولا شيء آخر، أنتِ رفضتِ زواج ابنتك ممن ترغب لمجرد الاختلاف عنا، أنتِ ترفضينه لأنك لا تعرفين عنه شيئا و«الإنسان عدو ما يجهل».

نظرت (سلوى) يمينا ويسارا، وكأنها تبحث عن إجابة، فقررت أن تبادله الهجوم:

ـ لماذا أراك تأخذ الأمر من زاوية التبسيط، وكأنها نناقش مستقبل أشخاص لا نعرفهم، إنها ابنتنا يا (محمد)، من حقنا أن نفعل المستحيل؛ كي نضمن لها مستقبلا حسنا.

بدأت تظهر نبرة تحدٍ في صوت (محمد):

ـ وما هو المستقبل الحسن الذى تتمنينه لها؟ هل تزويجها لشخص لا تحب. هو المستقبل الحسن الذى ترغبين؟ ماذا لو أنها كسبت موافقتك وخسرت سعادتها مع زوج لا تحبه؟

نهضت (سلوى):

ـ أنت تجافى المنطق السليم يا زوجي العزيز، السعادة لها شروط عدة، وما تقوله أنت مجرد إحدى شذرات السعادة.

ابتسم (محمد) وهو يعترف لنفسه أن زوجته فقدت الحجة فبدأت في تمييع النقاش، نظر نحو (شيماء) وسألها:

ـ ما اسمه يا (شيماء)؟

نظرت إلى أبيها بهدوء:

ـ (معتصم)... (معتصم جُلق).

قاطعتها (سلوى) بحدة:

ـ (معتصم) ماذا؟

جاء صوت (شيماء) قويا وأكثر ثقة، وهى تعيد الاسم على مسامع والديها:

ـ (معتصم مصطفى أحمد عمر جُلق) يا أمي.

ظهر الغيظ على ملامح (سلوى):

ـ ما شاء الله، تحفظين اسمه كاملا حتى الجد الثالث.

صمتت (شيماء) وتنهد (محمد) فى نفاذ صبر، وقال منهيا النقاش:

ـ دعوني أهتم بالسؤال عنه وعن عائلته أولا، ثم نعيد النقاش مرة أخرى بعد ذلك.

ارتسمت علامات الارتياح على وجه (شيماء) فقبلت رأس والدها، وهرولت إلى حجرتها، وهى ترى فى الأفق بصيصا من أمل ينبض فى قلبها، بينما انسحبت (سلوى) إلى حجرتها وما زالت تميز غيظا.

(١٩)

استعد (عمر) للخروج من المنزل، وقبل أن يغادر صعد إلى شقة والده الذى استقبله بمشاعر الرضا كالعادة:

ـ هل علمت بعزم أخيك على الزواج؟

هرب (عمر) بنظراته من أبيه، وكأنه يخجل من فعلة شقيقه:

ـ عرفت يا أبى واتفقت مع (معتصم) ألا أتدخل فى هذا الشأن بخير أو بشر، سأدعه وعقله.

سكنت ملامح التعجب وجه (مصطفى):

ـ ولكن أنت شقيقه البكر، يجب أن تساعدني؛ كى نرده للصواب.

ضم (عمر) ساعديه أمام صدره:

ـ أصدقك القول يا أبى، هو ليس على خطأ بالكامل، فله الحق أن يختار زوجته، والعائق الوحيد بالنسبة له هنا، هو تمسكنا الكامل

بنوبيتنا وعاداتنا التى ورثناها، والتى تلزمنا بالزواج فيما بيننا، لكنه لم يمتلك قناعاتنا بالتمسك بهذه العادات بإعتبارها تمسك بالهوية، واختار لنفسه طريقا يزيده بعدا عن الأصل النوبى.

نظر الأب لولده بشيء من الدهشة، لكنه تفَّهم منطقه ووجهة نظره، وفى النهاية لم يعلق على كلماته، لكن (عمر) نحى بالحديث إلى وجهة أخرى:

ـ أنا ذاهب يا أبى لنادى النوبة العام، هل تأتى معى؟

ـ وفيما ذهابك يا ولدى؟

ـ ندوة للأديب (حجاج أدول).. سنتحدث فى جزء منها عن عرض قضيتنا على لجنة إعداد الدستور الجديد.

ظهر الحماس على وجه (مصطفى) الذى هرع لتغيير ملابسه، واصطحاب ابنه إلى النادى، عند خروجه من حجرته طرق باب حجرة (معتصم)؛ كى يصحبهما، لكنه تحجج بالتعب، ولم يشأ والده أن يضغط عليه، فتركه وشأنه.

* * *

كانت الأجواء في الندوة حماسية للغاية، لكن أغلب الحاضرين كانوا من كبار السن، وظهر العنصر الشبابي على استحياء، وهى ملاحظة لم تمر دون أن ينبه إليها منظم الندوة؛ مخاطبا كبار السن المتواجدين:

ـ أين شباب النوبة يا رجال؟ لماذا لم يُحضِر كل منكم أبنائه؟ هل تريدون لهم أن يجرفهم النسيان كما جرف النهر قُراكم؟

سرت الهمهمات فى القاعة فى الوقت الذى نظر فيه (مصطفى) لولده (عمر) فشعر بالزهو والفخر بابنه، لكن بريق عينيه انطفأ حينما تذكر (معتصم) فعاد بانتباهه للندوة من جديد. رحب منظم الندوة بالأديب النوبى الكبير، ثم بدأ الحضور في طرح الأسئلة، وإدارة النقاش، بعد قليل رفع (عمر) يده طالبا السؤال، فأشار له منظم الندوة، فقام محييا المنصة والحضور، وانتقل مباشرة للسؤال:

ـ ماذا لو أن الحكومة المصرية ماطلت من جديد في مناقشة حق العودة؟، والأسوأ... ماذا لو رفضت صراحة السماح لنا بالعودة؟ ما الذي يمكننا فعله في تلك اللحظات؟

أطرق ضيف الحفل قليلا، وكأنما يزن إجابته قبل أن يصرح بها، ثم تنهد بعمق، وبدأ الحديث بصوت يحمل تجارب السنين الطويلة الماضية:

ـ بعيدا عن الشعارات الرنانة، والكلمات الخالية من الواقع، لن يكون لدينا حل سوى معاودة فتح الملف النوبي مع الحكومة التى تليها، ثم التى تليها، ثم التى تليها إلى أن تحين الساعة، أو تحين العودة.

ضجت القاعة بالتصفيق، لكن (عمر) عاد يطلب الكلمة من جديد:

ـ ولماذا علينا أن ننتظر أن يأتي الحل من جهة الحكومة؟ لماذا لا نبادر بخطوة أو خطوات نحو الحل الوحيد المنطقي المتاح.

نظر له عدد كبير من الحضور، وكأنما يطالبونه بالتوضيح، أدار (عمر) بصره بينهم، ثم واجه الضيف، ورفع صوته ليضمن وصول كلمته للجميع:

ـ أن نبادر بالعودة دون إذن من أحد.

ضجت القاعة بالتصفيق لكلمات (عمر) الذي بدا وسط الحشد المصفق والحماس الذي يملئ القاعة لكلماته وكأنه (مارتن لوثر كينج) آخر، وكأنما التصفيق، وكلمات الاستحسان منحته مزيدا من الحماس والشجاعة:

ـ من يطلب إذنا من أحد قبل أن يعود إلى بيته؟ من عليه أن ينتظر منحة من آخرين؛ كي يسترد حقوقه؟

عادت كلمات الاستحسان تدور في القاعة من جديد، وزادت حماسة الحضور، خطا (عمر) عدة خطوات حتى اقترب من منصة إدارة الندوة، لكنه استدار ليواجه الحاضرين، ويواصل بث الحماس في عروقهم:

ـ لقد قال (جمال عبد الناصر): «ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة»، أليس هو الرجل الذي سلبنا جذورنا؟ سنتبع نصيحته لنعيد زرع أقدامنا من جديد في أرض النوبة... بالقوة... دون إذن من أحد.

للمرة الثالثة تسرى همهمات الحماس بين الحضور، اكتسب الشباب الحاضرين شجاعة من كلمات (عمر) واقتربوا منه يشدون على يديه، حاول منظم الحفل أن يسيطر على الموقف؛ لكنه فشل، فانسحب ومعه ضيفه.

* * *

حملت شاشة الهاتف المحمول اسم (معتصم) فأسرعت (شيماء) بالتقاطه، وتأكدت من غلق باب حجرتها من الداخل قبل أن تجيب:

ـ أحبك.

سمعت صوت ابتسامة (معتصم) فابتسمت رغما عنها:

ـ أحبك

هذه المرة أجابها:

ـ أنا أيضا أحبك... أعشقك.

جلست (شيماء) على سريرها وأسندت ظهرها إليه:

ـ هلا طمأنتني عليك؟

ـ اطمئني أنا بخير.

قالها بصوت لم ينجح أن يجعله مقنعا، حتى أنه لم يصدق نفسه في هذه اللحظة، لكن (شيماء) ابتلعت افتعاله هذا:

ـ هل من جديد مع والديك؟

جاء صوته هذه المرة حزينا:

ـ أخبرتك أن الأمر سيتطلب جهدا، ووقتا فوق ما تتوقعين، كما أخبرتك إنني سأستمر فى المحاولات كأمواج المحيط، موجة وراء موجة بلا انتهاء، أقلهن ستبدو كالطود العظيم.

هزت (شيماء) رأسها فى يأس:

ـ الموج لا يغير فى البر شيئا لأنه يبقى حبيس المياه.

استند (معتصم) إلى حافة نافذة حجرته:

ـ الموج يعيد تشكيل الشاطئ، حتى لو لم يغادر بحاره.

جاء صوتها نافذ الصبر:

ـ وما حاجتنا بتشكيل الشاطئ، ونحن نريد أن نبنى فوق الأرض عالما جديد، يصنعه حبنا، ويحكمه عشقنا.

حاول (معتصم) أن يمنح صوته نبرة أمل:

ـ لعل محاولاتي تنتهي بمعجزة خروج الموج إلى البر.

عاد اليأس يتسلل إلى صوت (شيماء):

ـ لقد انتهى عصر المعجزات يا حبيبي.

ـ فلنصنع واحدة.

ـ صمتت (شيماء) لبرهة، فعاد (معتصم) للتحدث:

ـ وما الجديد عندك؟

بدا صوتها مشرقا وهى تجيبه:

ـ وعدني أبى بالسؤال عنك، وأخبرني أنه سيفكر فى الأمر.

تسللت الفرحة إلى (معتصم):

ـ بادرة أمل لم أتوقعها فى هذه الظلمة الحالكة التى تحيطنا.

ابتسمت (شيماء) لفرحته:

ـ لا تقلق يا حبيبي فالصعاب تصنع قصص الحب الخالدة، تاريخ العشق يذكر سعى المحبين ولا يذكر نتائج سعيهم.

همس إليها:

ـ لعلنا نكون أول قصة حب يذكرها ديوان العشق بغير الفراق.

شعرت بالخجل فأرادت أن تنهى المحادثة على هذا النحو:

ـ أراك غدا فى المدرسة إن شاء الله.

ـ لا إله إلا الله.

ـ محمد رسول الله.

* * *

فى طريق العودة إلى المنزل اتكأ (مصطفى) على ذراع (عمر) وهو فخور بولده الذي أشعل قاعة الندوات اليوم حماسا، وأيقظ حلم العودة فى عدة نفوس.

من بعيد، تتبعتهم خطوات متخفية حتى المنزل.

(٢٠)

رغم أن الشمس كادت أن تتوسط صفحة السماء، إلا أن الظلام كان يسيطر على الغرفة، إلا من إضاءة خافتة من مصباح صغير، تشرق على سطح مكتب، يجلس إليه شخص يرتدى بذلة سوداء، ورابطة عنق غير منتظمة، ذات لون غامق، يطالع ملف أمامه بتركيز كبير، يقلب صفحات الملف بين دقيقة وأخرى، أحيانا. يقوم بتدوين بعض ملاحظات، أو يسحب نفسا عميقا من سيجارته المهملة فى المنفضة، ثم يتبع ذلك برشفة من فنجان قهوته. بعد قليل يتراجع فى مقعده؛ مسندا ظهره، ممتصا آخر لحظات الحياة من السيجارة، ثم يدفنها بلا حزن تحت أنقاض من تلال جثث سابقة، فى منفضته الممتلئة عن أخرها، يزفر دخانا كثيفا نحو السقف، متأملا الأشكال التى ترتسم فى الهواء وتتغير بأسرع مما تكونت.

يسمع طرقات على باب حجرة المكتب فيأذن للطارق بالدخول،

يدلف إلى المكتب شاب رياضي، ذو جسم متناسق وملامح جادة وشارب كث، يجلس على الكرسي المقابل للمكتب:

ـ صباح الخير يا (فؤاد) باشا.

ـ صباح الخير يا (علي).

أخرج (علي) سيجارة فاخرة من علبته، وقدم واحدة لـ(فؤاد)، أشعل كل منهما سيجارته، استأنف (على) الحوار:

ـ ما الجديد الذي طلبتني سيادتك لأجله؟

أشار (فؤاد) نحو الملف الموضوع أمامه بعدم اكتراث:

ـ مجرد أحمق آخر يظن أنه قادر على تحدى النظام، يظنون أن ثورتهم قد غيرت شيئا.

اعتدل (على) فى جلسته وأبدى اهتماما لكلمات (فؤاد)، ثم أردف:

ـ هل يمكن أن تطلعني على التفاصيل؟

نفث (فؤاد) دخان سيجارته فى حدّة:

ـ محام شاب يتزعم شباب النوبة فى القاهرة ويؤلبهم على الدولة، طالبا منهم العودة إلى النوبة التاريخية على ضفاف بحيرة ناصر.

ـ أتفهم الأمر، لكن ما هي الخطورة الأمنية من وراء عودتهم؟

مال (فؤاد) بجسده إلى الأمام، واستند بمرفقيه على المكتب:

ـ القيادة السياسية تخشى أن يستغل الأعداء ضعاف النفوس منهم، ويزرع بينهم فكرة الانفصال عن مصر والاستقلال بدولة النوبة التى تضم جنوب مصر وشمال السودان.

بدا (على) أكثر جدية وهو يضيف:

ـ نعم، نعم، أذكر الخرائط التى تم تسريبها من المخابرات الأمريكية والخاصة بتصورهم عن الشرق الأوسط الجديد، ولفت نظري رغبتهم فى تقسيم مصر إلى ثلاث دول.. إحداها للنوبيين فى الجنوب والأخرى للمسيحيين فى الصعيد، ثم دولة للمسلمين فى الشمال.

اعتدل فى جلسته وارتسمت على ملامحه الجدية القصوى:

ـ الأمر خطير بالفعل خاصة مع ظهور حركة مسلحة تسمى نفسها «كتالة» تدعو للانفصال عن النوبة، وهو أمر لن تسمح به القيادة السياسية، ولا تنس أيضا رغبة الغرب فى انتزاع سيناء والمزاعم التى تتداول من رغبة البعض فى تسكين الفلسطينيين فى سيناء بدلا من فلسطين، وبهذا تُحل القضية الفلسطينية، ويرتاح الكيان الصهيوني على حسابنا.

نهض (على) محتدا:

ـ هيهات يا (فؤاد) باشا، طالما نحن على قيد الحياة، لن نسمح بهذا أبدا، اسمح لي سأذهب لمكتبي لترتيب اللازم، من فضلك أرسل لي بياناته.

انصرف (علي) ثم اعتدل (فؤاد) فى جلسته، وضغط زرا على سطح المكتب، تبع ذلك دخول شاب نحيف قمحي اللون فى نهاية العشرينات، يرتدى قميصا قطنيا أبيض وبنطلونا أسود ينبئان عن خلفية اقتصادية متوسطة، وقف أمام المكتب بقامة مشدودة، ناوله (فؤاد) ورقة صغيرة، نظر إليها الشاب لثانية ثم خرج من الغرفة ليعيدها مرة أخرى إلى سجن الصمت.

* * *

جلس (معتصم) على مقعد القهوة فى مواجهة صديقه (محمود)، هو الأقرب إليه من أصدقائه وأطيبهم، كان قصيرا وبه شيئا من البدانة. يعمل مدرسا للغة الإنجليزية بنفس المدرسة التى يعمل بها العاشقان، (محمود) هو الشاهد على لحظات ميلاد قصة الحب بين (شيماء) و(معتصم) ولهذا فهو يعلم كل تفاصيل الصراع الذي يدور الآن في منزلىّ العاشقين، وكانت هذه الصراعات هي سبب جلسة القهوة المنعقدة الآن، بادر (محمود) بالحديث:

-إلى متى ستظل على هذا الصمت؟ هل طلبتني كي تُسمعنى صمتك؟

نظر إليه (معتصم) بغضب:

- أظن أنه لا مكان للهزل الآن يا (محمود)، تلك هي أصعب أيام حياتي، وأنت لا تتكلم بجدية ولو لجملة واحدة.

ابتسم (محمود) لصديقه:

- صدقني يا صديقي العزيز أنا أتعامل مع مشكلتك بكل اهتمام وجدية، لكنك تحفظني أكثر من كل الناس، أنا لا أحتمل النكد.

شعر (معتصم) بشيء من الضيق لتعليق صديقه، لكنه آثر أن يخبئ ضيقه وراء جدار الصمت، عبث بهاتفه المحمول، أراد أن يتحدث إلى (شيماء) كي يطمئن عليها، لكنه تراجع قلقا من أن يسمع أخبارا لا ترضيه، عاد (محمود) لمشاكسة صديقه:

- يا ولدى لا تدع الهم يرافقك، اهرب منه قبل أن يلتصق بك للأبد.

اتبع جملته بضحكة، حملت براءة وصدقا، لكنها لم تفلح فى النفاذ إلى روح (معتصم) لتطمئنه أبدا.

أمام المائدة التى تبعد خطوات منهم، جلس رجل يتابع حوارهم باهتمام وتركيز.

بدأت الأوراق تنضم إلى الملف أمام الرجل ذو البذلة السوداء.

(٢١)

عاد (معتصم) إلى منزله بعد انتهاء يوم العمل المرهق، دخل مباشرة إلى غرفته، وأغلق بابها، وكأنه يعزل نفسه عن أهل البيت حتى أنه لم يتناول الغذاء بصحبتهم، بعد أن تناول (مصطفى) غذائه، طلب من (سيلة) أن تعد له كوبا من الشاي، وتأتى به إلى حجرة (معتصم)، اختفى قليلا فى حجرته ثم توجه إلى غرفة ابنه، طرق بابها ونادى ولده بصوت هادئ:

ـ (معتصم)... ممكن أدخل؟

لم يستطع (معتصم) تجاهل صوت والده رغم رغبته العارمة فى الانفراد بنفسه، لكنه تقدم نحو الباب، فتحه وعلى وجهه ابتسامة مرحبة:

ـ أهلا يا حاج، شرفت الحجرة.

بادله (مصطفى) الابتسام، ربت على كتفه، ثم جلس على الكرسي

المواجه لسرير (معتصم) الذى جلس في مقابل والده مطرقا، مد (مصطفى) يده إلى (معتصم) حاملا علبة ما، فنظر له (معتصم) متسائلا بدهشة:

ـ ما هذا يا أبى؟

ابتسم (مصطفى) مجيبا:

ـ افتح لترى.

تناول (معتصم) العلبة وفتحها، أعاد النظر إلى والده يسبقه السؤال مرة أخرى:

ـ ما هذا؟

خرج صوت (مصطفى) هادئا ويحمل الكثير من الحنين:

ـ مفتاح منزل جدك (أحمد جُلق).

ارتسمت علامات الحيرة على وجه معتصم:

ـ لست افهم!!

ـ حينما خرجنا من منزل جدّك للمرة الأخيرة، حرصت أمي (آشريا) رحمها الله أن تتركه نظيفا جدا، كنسته جيدا حتى لم تترك ذرة من تراب، ثم أعادت تغطية الأرض بالرمال من جديد كما هي العادة، قامت برش الماء المخلوط بماء الورد، وأطلقت البخور فى كل جنبات الدار، ليصبح شكله أبهى مما كان، ورائحته أطيب مما كانت.

قلب (معتصم) المفتاح بين يديه:

ـ وما الحكمة فى ذلك يا أبى؟

أدار (مصطفى) وجهه، ونظر عبر النافذة إلى السماء المفتوحة، وكأنه ينظر إلى الماضي البعيد:

ـ كانت تحرص أن تترك البيت نظيفا لعلنا نعود يوما ما، كنا جميعا على يقين أن هذا المنزل سيطوله غضب النهر حتى يمحوه، لم نكن نبني بالحجر، بل كانت بيوتا من طين، ومن المؤكد أن النهر قد جرفه، وذوَّبه بين ثناياه، لكنه الأمل يا ولدى، الأمل الذي منه نبتت بذرة حلم العودة.

ـ أبى ما الـ...

أشار له (مصطفى) أن ينتظر حتى ينهى كلامه:

ـ قبل بناء السد، كانت ماء الفيضان كثيرا ما تطال بعض البيوت، كنا نعرف موعده بكل دقه، فالنهر العظيم كان أبانا، وكان يرسل لنا إشاراته حتى نستعد، قبلها، كنا نخلع باب الدار، ونصعد به إلى نقطة عالية فى الجبل؛ حتى ينتهي عطاء النهر، حين نعود إلى قرانا، تكون البيوت قد ذابت وسافرت شمالا مع الماء؛ لأنها من طين، وتبقى الأبواب وحدها معنا لأنها لن تذوب فى الماء، نبنى دورا جديدة من الخير الآتي مع الأب النهر حتى موعد العطاء التالي، حينما هجرنا النوبة، لم نستطع هذه المرة أن نأخذ الباب معنا، لكن حين أغلقتُ باب الدار للمرة الأخيرة، تأكدت من غلق مزلاجه بالمفتاح جيدا، حرصت أن أحفظ المفتاح بين مقتنياتي، انشغلتُ كثيرا كي يظل براقا لامعا كما تراه بين يديك الآن، هذا المفتاح يا ولدى رمز أكثر مما هو شيء آخر، لن أتخلى

عنه إلا يوم أعود، أو يوم اجتمع برفاقي الراحلين، وحين أموت كنت أنوى أن أمرره لكما ـ أخيك وأنت ـ حتى تعودا أو تمرراه إلى من يمكنه حصاد بذرة الأمل يا ولدى.

نهض (مصطفى) ولم يدع لولده طاقة على الرد، خرج من باب الحجرة مناديا على (سيلة):

ـ الشاي يا حاجة.

نظر (معتصم) إلى أبيه فاستوقفه:

ـ قد عرفت بأمر المفتاح، فما هذا الكيس الأبيض بيمينك؟

تفحصه (مصطفى) بنظرة حانية، ابتسم فى صمت وخرج لتبتلعه غرفته وتواريه عن نظرات (معتصم) التى تتبعته منذ قام من مجلسه، عاد يتحسس المفتاح ويقلبه من جديد، رفعه أمام وجهه يتأمله، ثم أعاده للعلبة بكل حرص، وكأنه يخشى أن يزعج الماضي الكامن فيه، أو يقلق الأمل الذي يحيطه.

(٢٢)

صورة (شيماء) المقيمة فى قلب الدكتورة (سلوى) قبل أن تسكن الإطار المذهب الموضوع بعناية على مكتبها بالعيادة، تطل على والدتها التى شغلها أمر زواج ابنتها من رجل (.....) لم تجد فى الحقيقة وصفا يبرر لها رفض هذه الزيجة سوى أنه رجل (مختلف)، تملكها التفكير حتى حجب عنها حواسها فلم تشعر (سلوى) بالخطوات التى عبرت باب حجرة الكشف إلا بعد أن نقرت بأصابعها سطح المكتب:

ـ (شيماء)!! يا لها من مفاجأة سارة، مرحبا بابنتي الحبيبة.

ابتسمت لها (شيماء):

ـ لم اعتد أن أجد العيادة أسيرة الصمت والفراغ كما هي الآن.

أطلقت (سلوى) تنهيدة حارة:

ـ فى الحقيقة لقد اعتذرت عن مقابلة مريضاتى الليلة.

اندهشت (شيماء) من إجابة والدتها فهذه هي المرة الأولى التى تعرف أن والدتها تعتذر عن ممارسة أكثر ما تحب فى الحياة:

ـ ترى ما الذي تغير الليلة من نواميس الكون لتغيري عادتك في الالتزام بالعيادة؟

كانت تحاول أن تمازح والدتها، لكن المزحة لم تجد طريقها إلى قلب (سلوى) الذي لم يعتد المزاح، الدكتورة (سلوى) التى لم تعرف فى حياتها سوى العلم، المستشفى، العيادة، حتى أنها تزوجت بشكل تقليدي تماما، حياتها لم تخرج عن إطار الأبحاث والمؤتمرات، غرف العمليات، حجرة الكشف، أما بيتها وزوجها وابنتها الوحيدة، فكانوا دائما فى المرتبة التالية للعمل، لم تعرف غالبا اسم مدرسة (شيماء)، المرة الوحيدة التى اهتمت فيها بهذا الأمر حينما أرادت أن تلتحق ابنتها بالقسم العلمي، وكاد الأمر أن يصبح معركة بينها وبين زوجها المهندس المدني، خريج القسم العلمي أيضا، لم يكن ضد فكرة أن تلتحق ابنته بالقسم العلمي، على العكس، كان يأمل ذلك، لكنه كان ضد فكرة الإجبار، إلا أن المعركة لم تدم أكثر من ساعتين. إذ استسلمت (شيماء) سريعا لرغبة أمها، فى الواقع هي لم تكن قد قررت من الأساس إلى أي قسم ستنتمي، لهذا جاء استسلامها طبيعيا للغاية، تصرفها لم يفاجئ والدها (محمد الفقى) فقد توقع هذا اليأس السريع من ابنته، لهذا فاجأتهما (شيماء) بهذا الإصرار العجيب على الزواج من (معتصم)، لم تكن شخصية مقاتلة فى طبيعتها، كانت طفلة عنيدة، لكنها تعلمت أن عنادها حينما يصطدم بصخرة رأى الأم، فلا نتيجة

إلا انكسار عنادها على حواف هذه الصخرة، ولهذا بدأت تعتاد أن تنصاع لأوامر والدتها.

ـ ماما.. ماما.. أين ذهبتى؟

انتبهت (سلوى) من شرودها على صوت ابنتها:

ـ معك يا طفلتي.

ـ لم اعد صغيرة يا أمي، ما زلت ابنتك بلا شك، لكنني كبرت، تجاوزت العشرين بأربع سنوات.

ـ ستظلين صغيرتي، وطفلتي، وكذلك أميرتي حتى يوم أموت.

خرجت الكلمات صادقة من (شيماء):

ـ أطال الله عمرك.

تنهدت (سلوى) ونظرت مليا لابنتها تتأملها، لا تصدق أن ابنتها كبرت فى غفلة منها، وسط انشغالها بالعيادة والمريضات والمستشفى، كيف تتسرب السنوات من بين ثنايا وعينا بهذه السرعة؟

ـ لقد شردت مرة أخرى يا دكتورة.

ـ تعالى معي.

قالتها (سلوى) وقامت من خلف المكتب لتسحب ابنتها من يدها متجهتين إلى الخارج، حاولت (شيماء) أن تهدئ من هرولة أمها وهى تسألها:

ـ إلى أين يا دكتورة؟

ـ سنمضى بعض الوقت معا، وحدنا، أنا وأنت فقط.

تعجبت (شيماء) وكأنها تسمع امرأة أخرى، تسللت بعض من الفرحة إلى وجدانها فتلك هي المرة الأولى التى تفعل فيها أمها ذلك، لكن صحبها بعض من الحزن فقد تأخر هذا الفعل سنوات طوال نبتت خلالها الأشواك حول شجرة المشاعر التى تجمعهما، فتردد صوت داخلها «وما المانع من تأخره، أن يحدث الأمر متأخرا خيرا من ألا يحدث أبدا» وبدأت سعادتها بهذا التقارب تكبر وتتعاظم.

جلسا معا فى أحد محال القهوة الشهيرة بحي المهندسين الراقي بمدينة الجيزة، تطل واجهة المحل الزجاجية بالكامل على أحد أشهر شوارع المدينة شارع جامعة الدول العربية، تحدثتا معا كثيرا، ضحكتا سويا حتى ترقرق الدمع فى مقلتيهما، مر بينهما الوقت دون أن يشعرا به، أحست (سلوى) وكأن ثلاثين عاما من حياتها قد تراجعت للوراء، عادت شابة صغيرة تحيطها السعادة، لم تعد الدكتورة (سلوى) الصارمة، ولا الأم المشغولة، بل كانت فى هذه الجلسة (سلوى) الصديقة، لم ينتبها للوقت الذي مر سريعا إلا على صوت رنين الهاتف حاملا صوت المهندس (محمد الفقى) معاتبا لهما على تأخرهما حتى الواحدة صباحا، تعللت (سلوى) بكثرة المريضات وهى تغمز لابنتها بعينها، وطمأنته أن (شيماء) معها فى طريقهما للبيت، لم يتطرقا قط طوال جلستهما لموضوع (معتصم) ولا الحديث عنه، خافت (سلوى) أن تلج هذا الأمر حتى لا يصدمها عناد ابنتها الذي عاد للحياة من جديد، وتحاشته (شيماء) حتى لا تخسر صديقتها الجديدة التى حلت أخيرا بأرضها بعد غياب سنوات طوال.

(٢٣)

وقف (عمر) مع بعض الأصدقاء أمام مدخل النادي النوبي بـ«وسط البلد» يستكملون النقاش الذي دار بالداخل، كانت الحماسة تتملكهم، والصوت يترامى، لم ينتبهوا إلى أنه ليست كل الآذان سليمة النية، اتخذ كل منهم طريقه، اتجه (عمر) إلى المنزل، الساعة تجاوزت الثانية صباحا، الشارع خال، صامت، لا يخدش صمته سوى وقع خطوات (عمر) ومن وقت لآخر صوت سيارة تمر، أو خطوات تتقاطع مع مساره فى الحياة دون أن تترك أثرا، لكن صوت خطوات بعيدة، خافتة، ظل ملازما لصوت خطواته، حتى انحرف (عمر) فى أحد الشوارع الجانبية المؤدية لمنزله، ساعتها تلقى ضربة عنيفة على رأسه، لم يكد يستوعب الأمر حتى ظهر عدد من الرجال وكأنهم ولدوا من الظلام، وقبل أن يدرك، انهالوا عليه ضربا عنيفا لكنه مدروس، لا يترك أثرا، لا يكسر ضلعا لكنه يحاول كسر الإرادة، لا يجرح لحما، لكنه يجرح الكرامة،

ومثلما ولدوا من الظلام، ابتلعهم الظلام من الجديد، الأمر الوحيد الذي أدركه (عمر) هي جملة واحدة:

ـ احترس والتزم بالحدود المسموحة.

قيلت بغلظة، وصلت إلى مسامعه بعد أن وصل الغل الذي سبقها من حنجرة قائلها، اصطدمت بأذنيه من قسوتها، مر بعض من الوقت قبل أن يتمكن (عمر) من النهوض مرة أخرى ليكمل طريقه إلى المنزل الذي اقترب، تلتصق تلك الجملة اللعينة بأذنه، وترفض التردد داخل جنبات ذهنه الذى تشوَّش لبعض الوقت.

حينما دخل (عمر) إلى شقته جزعت (أمينة) من مظهره وهرولت إليه تحتضنه:

ـ ما الأمر؟... ماذا حدث لك؟

لم يرد (عمر) سوى بابتسامة مطمئنة، لكنها ليست صادقة. فلم تجد لها مسكنا فى قلب حبيبته:

ـ ماذا حدث يا (عمر)؟ أخبرني بالله عليك.

ـ لا شيء يقلق يا حبيبتي، لقد وقعت على السلم ولهذا اشعر ببعض التعب.

الألم غلف كلماته فأسرعت (أمينة) تكشف ملابسه لتطمئن أن جسده سليم، ولم يصيبه الضرر، أطالت البحث، وكأنها تدرك أن هناك ألما لا تراه، إلا فى عين زوجها الحبيب، لا تعرف أنها مهما استمرت فى التدقيق، فلن تجد ما تبحث عنه لأنها لن تتمكن من البحث فى روح

(عمر) حيث سكن الوجع، احتوته بين ذراعيها وأراحت رأسه على صدرها، لو أن له أن يبكى لبكى بحرقة، ولأسال الدمع ثخينا، غزيرا، لعله ينسى ويغسل به الأوجاع، لكنه حفيد (أحمد جُلق) وابن (مصطفى جُلق)، لا يمكن أن يبكى أبدا، لذا اكتفى بالتنهد، فخرجت أنفاسه تكاد تحرق صدر زوجته التى رسخ يقينها أن هناك أمرا لم يبح به، ولم ترد أن تلح عليه، فاكتفت بالربت على ظهره؛ لعلها تبثه الطمأنينة.

* * *

عادت (شيماء) إلى المنزل بصحبة والدتها ليجدا والدها فى انتظارهما، تبادلوا عبارات التحية المغلفة بالمرح، انتبه الرجل أن ابنته وأمها فى حالة انسجام فابتسم:

ـ ترى ما هو سر هذه البسمات؟

علقت (سلوى) بابتسامة جديدة:

ـ وهل تكره أن ترانا نبتسم؟

هز رأسه نافيا:

ـ بالقطع لا، كل ما فى الأمر أنى لم أعتد على الأمر وأحببت أن اعرف سر التغيير.

تدخلت (شيماء) لتجيب بمرح:

ـ كل ما فى الأمر أنى اكتسبت اليوم صديقة جديدة.

قلب (محمد) وجهه بينهما ولم يعلق، لكنه أشار بورقة فى يده إليهما:

ـ لقد سألت على (معتصم).

تبدل وجه (سلوى) فى جزء من الثانية، وبدا القلق واضحا على ملامحها، بينما (شيماء) هرولت نحو والدها:

ـ والنتيجة يا «باشمهندس»؟

ـ فى الإجمال الشاب جيد ولا تعليق عليه.

تدخلت (سلوى) وما زال القلق رفيقها:

ـ أين يكمن التعليق إذن؟

تنهد (محمد) وهو يعيد النظر إلى الورقة:

ـ إنه شقيقه، له نشاطات مقلقة، هو من الأشخاص اللذين قد يتسببوا فى مشاكل.

رنت نغمة انتصار فى صوت (سلوى):

ـ أى نوع من المشكلات تقصد؟

انتقل القلق هذه المرة إلى صوت (محمد):

ـ سياسية.

قالها بصوت خفيض، وكأنه لم يستوعب بعد حقيقة أن هناك ثورة قد غيرت الأوضاع فى البلاد، لكنه الموروث القديم من الخوف الذي تحكم في عقليته هذه المرة، تدخلت (شيماء):

ـ أنا لن أتزوج شقيقه، كما أن السياسة لم تعد تثير المشكلات مثل الماضي.

جاء الاعتراض هذه المرة من الأب:

ـ لكنه أحد أفراد الأسرة، لو تسبب فى مشكلة ما ستنالكما إن تزوجتما، كما أن هناك مشكلة أخرى.

التفتت إليه (شيماء) مستفسرة، وسارعت (سلوى) بالسؤال فى لهفة:

ـ ما هي؟ تكلم.

ـ والده، عرفت أنه معترض على هذه الزيجة حد العناد، وأن مشكلة كبرى ستنشأ لو صمم (معتصم) على إتمام أمر هذا الارتباط.

صاحت (سلوى) في عصبية:

ـ أنا لا يمكن أن اسمح بهذه الزيجة ما لم يوافق أهله.

شعرت (شيماء) أن تعليق أبيها الأخير هو الذي منح لأمها السيف المناسب الذي تقاتل به رغبتها في الزواج من (معتصم) فهرولت باكية إلى حجرتها.

(٢٤)

دخلت (سيلة) حجرة (معتصم) أبكر من المعتاد لتوقظه، جلست بجواره على السرير، ربتت ظهره بكثير من الحنان، تدلله كأنه عاد طفلا، قبلت جبينه فاستسلم وفتح عينيه أخيرا، نهض ليجلس بجوارها، تبادره بابتسامة حنونة:

ـ هيا لنفطر سويا، أعددت إفطارا شهيا لنا.

تبسم (معتصم):

ـ والله زمان يا حاجة سيلة.

نهضت للخروج من الغرفة:

ـ هيا اغسل وجهك وألحق بي.

على مائدة الطعام جلس (مصطفى) وبجواره زوجته وولده، تبسم لهما وهو يقول:

ـ منذ فترة لم نجتمع على الإفطار، لا ينقصنا سوى وجود (عمر) و(أمينة):

نهض (معتصم) متجها إلى باب الشقة:

ـ سأنزل لأحضرهما.

تبسمت (سيلة)، ثم التفتت لزوجها بعد انصراف (معتصم):

ـ ما الأمر يا حاج، لماذا صممت أن نجتمع على الفطار اليوم؟

ـ وجودنا جميعا فى مواجهة (معتصم) قد يثنيه عن هذه الفتاة التى يرغب فى الزواج منها.

ـ لكنك قلت بنفسك من قبل إن ولدنا عنيد وصلب كالصخور.

ـ أرأيت صخور الشاطئ يا (سيلة)؟ صلبة جدا كابنك، لكن تتالي الموج عليها يعيد تشكيلها ببطء، النفس الطويل والصبر هما علاج العند يا زوجتي الحبيبة.

نظرت (سيلة) إلى زوجها بإعجاب، وكأنها تعيد اكتشاف جوانب لم ترها فيه من قبل، يستأنف (مصطفى) كلامه:

ـ جميعكم توقع منى ثورة لا نهائية وغضب غير مسبوق، وقد كنت فى طريقي لذلك بالفعل، لكنى تعلمت من الأيام أن الغضب ليس حلا فى كل الأحوال، لقد تجهز (معتصم) لعواصفي، لكنه لم يعمل حسابا لصبري، لهذا قررت أن أكون الموجات التى ستعيد تشكيل صخور عناد ولدى.

قطع حديثهما دخول (معتصم) بصحبة (أمينة) و(عمر)، كانت

(أمينة) أول المعلقين على طعام الإفطار:

ـ لماذا لم ترسلي لي يا أمي كي أساعدك؟

تبسمت (سيلة) فى حنان، هي لا تعرف غيره، ولهذا فهي تحب الجميع وتحنو على الكل:

ـ لا داعى لتعبك يا بنيتى، الأمر بسيط ولا يستدعى المساعدة.

جلسوا إلى المائدة بعد أن اتجه (عمر) إلى والديه لتقبيل يد والده وجبين أمه، كانت نظرة عينيه بها انكسار لم يخطئه (مصطفى)، فطلب من ولده أن ينفردا بعد الإفطار، نظر (مصطفى) إلى ولديه بتأمل، وتمنى لو أن (معتصم) مثل (عمر)، أراد أن يبدأ مناورته:

ـ ما الذي حدث فى لقاء الأمس بالنادي النوبي يا (عمر)؟

شعر (عمر) بشيء من الضيق يتسرب إلى نفسه بعد أن تذكر ما حدث له ليلة أمس، لكن هذا الضيق زاده تصميما أن يمضى فى طريقه الذي أراد، بالتدريج تلاشت نظرة الانكسار من عينيه، لهذا جاء صوته يحمل حماسا أسعد (مصطفى) وطمأنه على ولده:

ـ لقد كان الأمس يوما رائعا يا أبى، لقد ازداد عدد الشباب الحاضرين بالندوة، وتعاظم عدد المتحمسين لفكرتنا.

نظر (مصطفى) نحو (معتصم):

ـ أتمنى لو أنك تذهب مع أخيك ذات يوم.

ثم أدار وجهه نحو (عمر) فى إشارة التقطها ولده فورا فأضاف:

ـ ستجد يا أخى إجابات لأسئلتك التى تكلمنا عنها من قبل.

رسم (معتصم) اللامبالاة على وجهه عامدا:

ـ لكل منا قضيته التى يحارب من أجلها يا أخي.

التقط (مصطفى) الخيط الذي ينتظره منذ بدء الحوار:

ـ وما هي قضيتك يا ولدى؟

طل شيء من الضجر على ملامح (معتصم) لكنه اختفى سريعا:

ـ قضيتى تعرفونها جيدا... ولا داعى لفتح الموضوع الآن.

ـ بالطبع يا ولدى، لا داعى لفتح الموضوع الآن.

نظر (معتصم) بجانب عينه إلى والده، كان يتساءل متى ستهب عاصفتك يا أبى، أفرغ غضبك حتى أستطيع أن أملأ قلبك بما أريد، بعد الإعصار يعم الهدوء يا أبت، وحتما بعد الفيضان ينحسر الماء من جديد، وهو ما يساعدنى أن أعيد زراعة قلبك برغباتى، فى الوقت نفسه كان (مصطفى) ينظر إلى ولده ويفكر أن الوقت مهما طال سيبقى صاحب الصبر، سينتهي المطاف كما أريد، بينما كان (عمر) غارقا فى فيضانه الخاص حول ليلة أمس، تتقاذفه الأفكار ما بين إتباع إنذار الأمس، أو المضي قدما حتى آخر مدى، قطع حبال الأفكار الممتدة فى الرؤوس الثلاثة صوت (سيلة):

ـ لقد اجتمعنا على المائدة كي نكون معا، وليس ليطير كل منكم فى فضاء مختلف، حافظوا على البقاء فى نفس السرب يا (آل جُلق) ولا يطير كل منكم إلى وجهة مختلفة.

ابتسم (مصطفى) لزوجته، بينما نظر الشقيقان إلى بعضهما، وابتسما، ثم تحولت البسمات إلى ضحك تنامى إلى قهقهة لأنهما تذكرا طفولتهما حينما كانت (سيلة) تصفهم دائما بسرب (آل جُلق). أثناء تناول الشاي اتفق الشقيقان بتشجيع من الأب أن يسافروا جميعا إلى النوبة الجديدة لزيارة عمتهم (دهيبة) والاطمئنان على أحوالها.

(٢٥)

رنين هاتف (شيماء) انتزعها من شرودها الذي اختطفها من وعيها منذ ليلتين بعد آخر حوار جمعها بأبيها وأمها، تناولت الهاتف بيد عليلة من الوجد، أشرق وجهها حينما لمحت اسم (معتصم) على شاشة الهاتف:

ـ ألو... أين أنت منذ أمس.

جاء صوت (معتصم) مبتسما:

ـ أحبك.

ردت بلهجة طفولية محببة إليه:

ـ كاذب.

استدعى لهجة مسرحية إلى صوته:

ـ تكذب كلماتي أمام الناس، ويجبرني عشقي على الصدق فى حرم جمالك.

ضحكت ضحكة صافية نبعت من قلب عاشق، فضحك أيضا، سألته بدلال:

ـ كيف حالك؟

ـ بخير الحمد لله، بدأت تكتيك جديد فى التعامل مع أبى.

جاء صوتها جادا هذه المرة:

ـ لماذا تشعرنى أننا فى معركة يا (معتصم)؟

هدأ صوت (معتصم):

ـ لو اضطررت سأحارب كي تصل بواخري إلى ثغرك.

ابتسمت (شيماء) وهى تجيب:

ـ لكن سفنك ترسو فعلا فى مرفأ قلبي.

همس (معتصم) فى حب:

ـ أتمنى لو تمنحيني إقامة كاملة بدلا من تأشيرة مؤقتة.

أفاقت من هذه الرومانسية وقالت فى جد:

ـ فلتنهى هذا التدليل وأخبرنى، ما جديدك؟

قلد لهجتها الجادة:

ـ سأسافر مع أبى إلى النوبة لمدة أسبوع.

شعرت (شيماء) بغصة:

ـ متى؟

ـ الأسبوع القادم.

خلت كلماتها من المشاعر:

ـ عد لى بالسلامة.

شعر (معتصم) بالغصة فى صوت (شيماء) فأراد أن يفهمها قصده:

ـ سلمتِ لى.. أريد أن أخلق نوعا من التقارب مع أبى علّه يلين، وهو لن يسعد بشيء بقدر ما يسعد إذا رآني فى النوبة أرتدي الجلباب الأبيض.

ـ أريدك أن تعدني بشيء واحد.

قال بلهفة:

ـ ما هو؟

أجابت بصوت يقترب من البكاء:

ـ أن يظل مكاني فى قلبك دون تغيير.

أجابها فى سرعة:

ـ صدقيني لو أن الأرض توقفت عن الدوران ما توقف قلبي عن حبك.

ـ أحبكَ.

ـ أحبكِ.

أغلقت (شيماء) الهاتف واستغرقت فى بكاء حار، شعرت أن (معتصم) يتخلى عنها فى توقيت صعب، كانت تريده بجانبها كي تقوى على المواجهة،

لم تفهم وجهة نظره فى احتلال مساحة جديدة فى قلب والده؛ كى يغير موقفه منها، لماذا يرفضها دون أن يعرفها، تبا لكل العادات والتقاليد التى تحرم ارتباط عاشقين، تمنت لو كانت نوبية أو ليت (معتصم) لم يكن، كادت تتصل به لتطلب منه ألا يسافر، لكنها فى نهاية المطاف وكالعادة استسلمت، فلم يكن بيدها شيء غير الانتظار.

* * *

هرولت (دهيبة) بقدر ما سمح لها سنها الذى تخطى الستين نحو أخيها وأولاده الواقفين بعتبة دار (عبد الله) زوجها الراحل، بدأت باحتضان (معتصم)، أغرقت وجهه بقبلاتها وهو يضحك ويبادلها الاحتضان والتقبيل، ثم أنحنى على يديها وقبلهما كثيرا:

ـ أتدركين يا عمتى أنى لا أزور النوبة إلا كى أراكِ؟، فليس لي فاهم فى هذا العالم بقدرك.

ارتسمت بسمة صافية على وجه (دهيبة):

ـ وأنا لا أتمنى أن يزورني أحد من القاهرة قدر ما أتمناك يا ولدى.

ضحك الجميع على كلامهما ثم اتجه (عمر) إلى حضن عمته التى استقبلته بحضن دافئ مرحب، ربتت على ظهره بحنان بالغ كعادتها كلما قابلته، ووجهها تعلوه ابتسامة رضا لا تتغير فى كل لقاء يجمعهما:

ـ افتقدتك كثيرا يا (عمر) لم اعتد منك هذه الغيبة، عام كامل منذ آخر زيارة، متى قسي قلبك يا ابن أغلى الناس؟

تبسم (عمر) حتى ظهر بياض أسنانه:

ـ صدقيني يا عمتى إن قسي القلب فلن تنالك قسوته ما دمت حيا ولا يمنعنى عن زيارتكم سوى الشدائد.

تنهدت (دهيبة):

ـ مصر لم يعد بها سوى الشدائد يا وليدى.

تدخلت (أمينة) فى الحوار كي تحول دفته إلى وجهة أخرى، قبل أن تبدأ وصلة الحماس التى تصيب زوجها كلما أتت سيرة ما يحدث فى البلاد:

ـ ألن ترحبي بي يا جدتي؟

تهلل وجه (دهيبة) وفتحت ذراعيها لحفيدتها:

ـ أنتِ نن العين يا (أمينة)، والله ما أحببت فى دنياي شخصا أكثر منك إلا هذا العجوز الذي يقف جوارك الآن وأمه رحمها الله.

ضحك (مصطفى) بصوت عال واحتضن شقيقته بشوق ومحبة:

ـ وأنا والله يا شقيقتى ما أحببت أكثر منكِ إلا أبيكِ.

تبسمت (دهيبة):

ـ رحمه الله يا أخى.

سألها (مصطفى) باهتمام وهم يدخلون إلى «حجرة الجلوس» بالدار:

ـ أين ولدك (الطاهر)؟

تدخلت (أمينة) بابتسامة تشبه براءتها:

ـ من المؤكد أن أبى فى العمل، فهو لا يقدم شيء عليه أبدا.

تبسمت (دهيبة) وهى تجلس بجوار أخيها:

ـ صدقتِ يا بنيتى، أبيكِ (الطاهر) فى عمله.

ثم التفتت إلى (معتصم) تداعبه:

ـ فى كل مرة تأتون إلى هنا يرتدى أبوك وأخوك الجلباب وتصر على ارتداء زى المدينة الصاخبة، فما الذي تغير هذه المرة لترتدي جلبابنا؟

أعتدل (معتصم) فى جلسته وتصنع الجدية:

ـ أمركم عجيب يا قومي، حينما أرتدي القميص والبنطال تغضبون، وحينما أرتدي الجلباب تتعجبون، ما الذى اصنع كي ترضوا؟

ضحكوا جميعا منه، ودار كأس السمر بينهم إلى المساء حتى قام كل منهم لشأن.

(٢٦)

جلس (مصطفى) مع شقيقته وحدهما يقص عليها أمر (معتصم) فتضرب صدرها بيدها:

ـ ولدك شارد عن الجمع منذ الصغر يا أخي.

تنهد (مصطفى) ونظر عبر النافذة إلى السماء الصافية:

ـ أتمنى لو أستعيده يا (دهيبة).

ربتت (دهيبة) على كتف أخيها:

ـ سأتحدث إليه، هو يحبني ولي قدر عنده.

أشار لها (مصطفى) بسبابته محذرا:

ـ كوني حريصة، فالموضوع شائك، وردود فعله قد لا تكون محسوبة.

ـ اطمئن، لا تخشى شيئا.

* * *

تهادى المركب السياحى على سطح مياه بحيرة ناصر، تحمل (آل جُلق) فى رحلة ظاهرها الاستمتاع بالإجازة، جلست (دهيبة) بجوار (معتصم) وحدهما، بعد أن توغلت المركب فى الماء، أشارت (دهيبة) بيدها:

ـ أتدرك أننا ربما نكون الآن فوق منزل جدك (أحمد)؟

دقق (معتصم) النظر إلى سطح الماء ولأول مرة يشعر بأسى نحو أحد من عائلته، قام وانحنى على جدار المركب، وأعاد النظر نحو الماء:

ـ ربما.

جاورته (دهيبة):

ـ قلبى يؤلمنى كلما مررت بسطح البحيرة.

أدار (معتصم) لها وجهه وبدت عليه علامات الاهتمام:

ـ لماذا؟

ـ أتصور أنى ربما أمر الآن بالقرب من قبور عائلتي دون أن أُمنح فرصة أن اقرأ لهم الفاتحة، أو أدعو لهم بالرحمة، لهذا دائما ما اقرأ الفاتحة لهم كلما مررت من هنا علّها تصلهم، لقد حُرمنا حتى من الترحم

على الراحلين أمام شواهد قبورهم، من الصعب ألا تعلم أين رفات أجدادك، إنها الوتد الذي يثبتك فى أرضك ودونها تقتلعك الرياح، وقد بعثرتنا رياح التهجير حتى تناثرت رفات الراحلين على وجه الأرض، لم يعد لنا وتد يا ولدى.

انحدرت دمعة ساخنة على وجنة (دهيبة) فشعر (معتصم) بالألم لألمها:

ـ هل تذكرين النوبة يا عمتي؟

نظرت (دهيبة) إلى عينيه:

ـ طبعا يا ولدى، عشت هنا مكان هذه المياه خمسة عشر عاما، تفتحت عيناى وأدركت الحياة فيها، نضجت من خيرها يا بنى.

شعر (معتصم) بالحيرة:

ـ ماذا عن يوم الرحيل؟

شرد بصر (دهيبة) إلى سطح الماء وكأنها تبحث عن أرض النوبة الغارقة:

ـ لم أتألم فى حياتى ـ رغم صغر سنى ـ كما تألمت فى هذا اليوم، هل جربت يوما إحساس الاقتلاع، لقد اقتلعونا من جذورنا الممتدة فى النيل، وألقوا بنا فى الصحراء، عمك (إبين) توفى قبل أن يكمل عامه الثانى بسبب هذه الرقعة الجرداء التى وضعونا عندها.

ازدادت دهشة (معتصم):

ـ حقا؟

تساءلت (دهيبة):

ـ ألم يحكى لك أبوك؟

ـ لأول مرة اعرف أن لى عما، كنت أظنك أخته الوحيدة.

ظهر الألم على ملامح (دهيبة):

ـ لم يكن اعتقال جدك يوم التهجير هو مأساتنا الوحيدة يا (معتصم)، موت عمك وجدتك متتاليان كان أيضا مأساة، الفقر، بؤس المكان، كلها أمور اجتمعت لتجعل الهجرة مستحيلة القبول، ولو بحثت، لوجدت مأساة خاصة بكل عائلة تفرعت من المصيبة الأم، مصيبة التهجير.

طأطأ (معتصم) رأسه وأعاد النظر إلى المياه مدققا فيها، لأول مرة ينتابه الشعور الذي طالما سمع عنه، كانت حكايات الهجرة وألمها بعيدة عن مشاعره، لكنه لأول مرة يشعر بها تتخلل أحاسيسه، يبدو أن سماع الحكاية مكان حدوثها يخلف أثرا مغايرا، شعر بيد تربت على كتفه فأدار بصره، ليجده (عمر)، تبسم له، انحنى (عمر) مستندا إلى سور المركب مثل (معتصم):

ـ هل سمعت يوما حكاية الشيخ (عثمان)؟

رد بجدية:

ـ لا لم اسمع بها، من هو الشيخ (عثمان)؟

ـ قريب لجدتك (آشريا)، رفض التهجير ولم يشأ أن يغادر بيته إلا إلى القبر، روت زوجته أنه نوى أن يبقى فى داره حتى تغمره المياه

ويموت فى النوبة، وقد فعل، فلم يغادر معهم واختبأ فى قريته ومن المؤكد أنه مات غرقا، ما الذي دار فى عقله وهو الحافظ لكتاب الله؛ حتى يموت بهذه الطريقة؟

علت الدهشة ملامح (معتصم):

ـ إلى هذا الحد؟!، لماذا جميعكم ترون أهمية الأمر إلا أنا؟!

تبسم (عمر) فى وجه أخيه:

ـ لأنك لم تفتح قلبك يوما، حاول أن تسمح لمشاعرك أن تتصل بهذه الأرض، ساعتها ستفهم، فكرة الوطن لا تعنى بالضرورة الدولة التى تحمل هويتها، ربما يكون الوطن بالنسبة للإنسان مجرد قرية صغيرة، أو بلدة نائية لا تجدها على الخريطة، بعض الناس وطنهم مجرد أربعة جدران وسقف احتواهم وقت أن لفظتهم الحياة، دفء الوطن أقوى من تفسيره، الانتماء إليه أعقد من مناقشته.

تدخلت (دهيبة) وهى تربت على ظهر (معتصم):

ـ اسمع يا ولدى لأخيك، لا تعاند، فأنت ابن هذه الأرض مهما أنكرت، أو حاولت، لو لامسها قلبك لارتحت، هنا يقبع جذرك، فلا تقطع صلتك به.

نظر لها (معتصم) ببصر زائغ وعين مترددة، انصرف (عمر) و(دهيبة) وتركا (معتصم) وحيدا تتخبطه الحيرة، يتساءل ما المميز فى هذه البلاد لتصيب أهلها بهذا التعلق، وهذا العشق حتى أن شيخا حافظا للقرآن يختار أن يموت على أرضها هذه الميتة كى لا يتركها، هل

حقا أنا الذى لا أفهم لأننى لم أصل قلبى بالنوبة؟، أم أنهم يبالغون؟

* * *

شعرت (شيماء) بالغضب يتملكها فلم يهاتفها (معتصم) منذ سافر إلى النوبة سوى مرة واحدة وكانت مكالمة سريعة لم تروِ ظمأها له، تناولت هاتفها كى تحادثه، لكنها تراجعت، من المفترض أن يكلمها هو، ألقت بالهاتف بجوارها على السرير، لم تمض دقيقة قبل أن تمسك الهاتف من جديد، وتبحث عن رقم (معتصم)، حينما يظهر أمامها تتأمل الاسم الذى سجلته بالهاتف، (حبيبى)، ترددت الكلمة فى جنبات قلبها قبل أن تتردد فى عقلها، يا لها من كلمة سحرية تفعل بنا الأعاجيب، ترتفع بنا إلى ما فوق سحاب السعادة، وفى نفس اللحظة تخسف بنا أرض القلق والخوف، وجود شريك عاطفى أمر ضرورى للإنسان، كضرورة الحياة نفسها، الأمر لا يستقيم بدون حبيب يشاركك لحظات حياتك جميعا، لا يفوت منها لحظة واحدة، فإن غاب جسده عنك، وجب عليه أن يترك روحه تهيم حولك، مجرد معرفتك أن هناك من يحبك، يمنح قلبك الدفء اللازم؛ كي يواجه شتاء الحياة القارص، الصعب. ابتسمت لهذه الأفكار التى ولدت فى عقلها، أرادت أن تتصل بـ(معتصم) من جديد، لكن التردد عاد يصاحبها فتركت الهاتف من يدها فى اللحظة التى سمعت فيها طرقا على باب حجرتها فاعتدلت:

ـ تفضل.

دخل والدها (محمد) تعلو وجهه ابتسامة وقور ويسبقه الهدوء الذي ارتسم على ملامح وجهه:

ـ مساء الخير يا حلوتي.

علا وجهها ابتسامة مرحبة:

ـ أهلا أبى، تفضل.

جلس (محمد) على حافة السرير فى مواجهة ابنته:

ـ كيف حال ست البنات؟

ـ بخير ما دمت عنى راض.

تبسم (محمد) فى رضا وربت على خد ابنته:

ـ ما هى أخبارك مع (معتصم)؟

هزت رأسها نفيا:

ـ لا جديد، لقد سافر بصحبة أبيه إلى النوبة. علّهما يتقاربان ويكون ذلك حلا لمشكلتنا.

اختفت البسمة من وجه (محمد):

ـ أتمنى لك التوفيق يا حبيبتى، لكنى أعيد عليك كلماتى علها تنفع، هذه الزيجة ستكون صعبة عليكِ إن تمت، قد لا تحتملين اختلاف الثقافات الذى حتما سيضعك فى مواقف صعبة، ربما تسببتي فى كثير من الحرج لـ(معتصم) فى مواقف مختلفة، فإلى أي مدى سيحتمل

هذا؟ وإلى أى حد ستحتملين؟، بالطبع أنا أتمنى لكِ السعادة، لكنى أبصرك بما أنتِ مقدمة عليه.

تبسمت (شيماء) لوالدها الذى زرع بذرة القلق داخلها ثم نهض فى هدوء، وانصرف تاركا إياها تغرق فى بحر من الاحتمالات والأسئلة التى لا تنتهى، والتى كادت تلتهم عقلها لصعوبة أجوبتها، حتى سالت دموعها ساخنة على وجهها الذى سكنه الخوف من أن يكون كلام والدها صحيحا، هل حقا ستكون الحياة مع (معتصم) بهذه الصعوبة؟ هل سأكون مصدر قلق بالنسبة له كلما اجتمعنا مع أسرته؟ كيف يمكن أن تتلاشى هذه الصعوبات وتجعل الحياة سعيدة كما تشتهى؟ دارت رأسها حتى سقطت فى بئر من نوم مضطرب.

* * *

فى الصباح التالى صادف (معتصم) أخاه يتجهز للخروج:

ـ إلى أين يا أخى؟

بدا (عمر) متعجلا:

ـ ذاهب إلى أسوان.

ظهرت الدهشة على وجه (معتصم):

ـ لماذا؟

كان (عمر) جادا وهو يجيب:

ـ سأشارك فى وقفة أمام مبنى محافظة أسوان للتذكير بحقنا فى العودة.

للمرة الأولى يشعر (معتصم) بالفضول بشأن هذه الأمور:

ـ هل يمكن أن آتى معك؟

نال الحماس مبتغاه من صوت (عمر):

ـ بالطبع يا أخى، سأكون سعيدا لمشاركتك.

علق (معتصم) بحذر:

ـ أنا لن أشارك، أنا فقط سأشاهد.

اتسعت ابتسامة (عمر) إلى آخر مدى:

ـ هى خطوة تستحق الإعجاب، هيا بنا.

ـ هيا.

خرج الأخوين (جُلق) متشابكى الأيدي، وعلى وجه كل منهما ابتسامة، ومن خلفهما وقفت (دهيبة) و(مصطفى) وقد سكنتهما مشاعر الرضا، بينما (سيلة) تقبع فى النافذة، وقلبها يدق بعنف.

(٢٧)

شارك (عمر) فى الهتاف بكل روحه، رفع اللافتات، أشعل الحماس، تنقل بخفة بين الحاضرين يزرع فيهم الأمل والحلم، بدا كقائد معركة، ينظم الصفوف، ويوضح دور كل فرد من المتواجدين، نظر (معتصم) لأخيه بإعجاب ودون أن يدرى ضبط نفسه متلبسا بالهتاف منفعلا بالأمل والحلم، انتبه إلى أنه يرفع لافتة كتب عليها «يا نوبة راجعين ومشتاقين»، ربما وصلته من أحد المنظمين أو من غيره لم يهتم، نظر إلى الكلمات التى يرفعها وكأنه لا يصدق أنه تورط إلى هذا الحد، ابتسم لنفسه وعاد للمشاركة فى الهتاف متحمسا، رفع اللافتة عاليا، وتعمد أن يقترب من (عمر) وكأنه يخبره أنه معه، وأنه يشارك ولا يشاهد.

لم يلحظ شباب النوبة أنه على بعد أمتار وقف مجموعة من الأفراد لم يختلطوا بالمتظاهرين، ولا برجال الأمن، بدا شكلهم مريبا،

يحملون أكياس بلاستيكية سوداء، يصورون المظاهرة ويشيرون لبعضهم إلى أجزاء معينة فى كل صورة، انصرف عدد منهم وبقى آخرون، اشتد حماس المتظاهرين، وارتفعت وتيرة الهتاف، بعضهم أخذ يغنى أغاني باللغة النوبية، فبدأ الباقيين يشاركونهم الأغنية، وشيئا فشيئا. اشترك الجميع فى الغناء والرقص، لم يفهم (معتصم) من كلمات الأغنية شيء فشعر ببعض الحزن، هو بين أهله ولكنه لا يفهمهم، نظر إلى (عمر) وجده يشاركهم الغناء مبتسما، يحفظ كلمات الأغنية ويرددها بكل بساطة فسأله عن معناها:

ـ هي أغنية تتحدث عن حنين العودة إلى النوبة.

سأله متحمسا:

ـ هل تفهم كلماتها؟

هز (عمر) رأسه بالإيجاب:

ـ بالتأكيد.

ـ هل يمكن أن تعلمني كلـ...

هل حقا سكتت كل الأصوات تماما فى هذه اللحظة إلا من صوت فرقعة سرعان ما تلاشت؟ وبقى صفيرها فى أذن (معتصم) وحده، هل حقا غابت كل الألوان من عينيه إلا من اللون الأحمر القاني الذي كسا وجه شقيقه (عمر)؟ هل حقا سكنت كل الأشياء حوله إلا من حركة سقوط (عمر) على الأرض؟، هل حقا فقد (معتصم) صوته إلا من صرخة ملتاعة أصَمّت مَن حوله؟، هل حقا جفت فى عينيه الدموع؟

هل حقا مات (عمر)؟

هل حقا مات (عمر)؟

مرت أيام العزاء الثلاثة لم يتفوَّه فيها (معتصم) بكلمة واحدة، لم يتجاوز حلقه إلا قليل من الماء، كلما أغمض عينيه احتلت صورة (عمر) مخيلته، وهو في لحظاته الأخيرة يمسك يده بقدر ما استطاع من قوة؛ لتخرج كلمة واحدة من فمه مخلوطة بالدماء:

ـ أكمل.

يفزع (معتصم) من نومه متصببا عرقا لزج خانق، يطبق على أنفاسه فيلهث، يقوم كي يغسل وجهه، ينظر إلى المرآة، يتحسس بعض ملامح (عمر) التي سكنت بعض ملامحه، لم يتمكن أبدا من البكاء رغم محاولاته اليائسة، أراد أن يبكى كي يستريح، يطل عليه وجه (عمر) فيمسك الدمع كي لا تهتز الصورة فى عينه، يرتدى ملابسه على عجل متجها إلى شقة أخيه، لاحقه نداء أمه الذي لم يصل إلى مسامعه، يطرق الباب فتخرج (أمينة) التى لم تعد (أمينة)، هل يتغير الإنسان بهذه السرعة؟ متى نبتت كل هذه التجاعيد على وجهها الشاب؟ الابتسامة فارقت شفتيها فذبلت، أم ترى كان ذبولها لغياب قبلات (عمر) عنها؟، هل زحفت شعرة بيضاء إلى مفرق (أمينة) الشابة؟ نفض الأسئلة عن عقله لينطق لأول مرة منذ رحيل أخيه:

ـ هل يمكنني أن أطلب منك مفتاح مكتب (عمر)؟

هزت رأسها بالإيجاب فى بطء وذهبت لتحضر المفتاح دون كلمة

وكأنها رحل (عمر) ورحلت معه الرغبة فى الحياة، فصمتت (أمينة) كما صمت (معتصم) قبلها، هل الصمت ضريبة الحزن الذي تدفعه هذه العائلة؟ أم أن وجع الفراق أقل وطأة من وجع الكلمات؟ تناول المفتاح وغادر إلى المكتب دون أن يتبادلا سوى نظرات الحزن.

* * *

كادت (شيماء) أن تفقد عقلها، عشرة أيام مرت لا تعرف شيئا عن (معتصم)، هاتفه لا يرد بشكل مستمر، لم يحضر إلى المدرسة رغم انتهاء إجازته منذ ثلاثة أيام، لم يتصل بها سوى مرة وحيدة، أمسكت الهاتف تتصل به وقد اتخذت قرار «ستكون هذه محاولتها الأخيرة»، جرس الهاتف ينتهي دون إجابة مثل مئات المرات السابقة، اتجهت إلى قسم الحسابات بالمدرسة، ستحصل على عنوانه من أحد زملائه هناك، وتذهب إليه، ستواجهه، ستخبره أنه إن أراد أن يبتعد عنها فليواجهها ولو لمرة أخيرة، استيقظ ترددها القديم، وهى تعبر فناء المدرسة فكادت تعود إلى حجرة المدرسين، لمحت (محمود) فنادته:

ـ أهلا (شيماء).

سكنت الحيرة كلماتها:

ـ ألا تعرف شيئا عن (معتصم)؟

علت الدهشة وجهه:

ـ (معتصم)؟.. ألم تعرفي الأمر؟

ارتعشت يد (شيماء) وانقبض قلبها:

ـ أي أمر؟.. هل أصابه مكروه؟.. ما الذي حدث؟ أخبرني.

بدا التأثر واضحا فى صوت (محمود):

ـ لقد قُتل شقيقه (عمر) فى وقفة احتجاجية أمام محافظة أسوان منذ أسبوع، كيف لم يصلك الأمر؟

خرجت كلماتها أقرب للهمس ونظراتها زائغة:

ـ قُتل أخاه؟ لماذا لم تخبرني حين علمت يا (محمود)؟

ـ كنتِ في إجازة وظننت أنك ستعرفين من (معتصم)، ألا تتهاتفون كل يوم عدة مرات.

انصرفت (شيماء) بخطوات واهنة والدمع يغرق خديها، تكاد تسقط من وقع الخبر.

(٢٨)

جلس (معتصم) فى مكتب شقيقه (عمر) يتأمل المكان حوله، ينظر إلى المكتبة الضخمة التى احتلت مساحة كبيرة من المكان، بها ركن خاص بكتب القانون ومراجعه، وباقي الأرفف تحوى كتبا منوعة، ما بين سياسية وأدبية واقتصادية وتاريخية، كتب بعضها مترجم، وبعضها بلغتها الأصلية، ركن خاص من المكتبة علقت فوقه ورقه كبيرة كتب عليها (EPKI ـ إركى ـ الأرض) كل كلمة فى سطر منفصل، سرى فيه شعور غريب تجاه الكلمة، متى سمعها من قبل؟ لم يتذكر بسهولة، اقترب من المكتبة، تحسس الكتب، قرأ عناوينها، كلها تتكلم عن النوبة، التاريخ، العادات والتقاليد، اللغة، حتى أنه وجد روايات لمؤلفين نوبيين، كانت المرة الأولى له التى يسمع فيها أسماء أدباء نوبيين أمثال (حجاج أدول) و(إدريس على) و(محمد خليل قاسم) و(عثمان النور) وغيرهم. أخذ يتصفح عدد من الكتب، حينما

دقت الساعة الثانية بعد منتصف الليل تنبه إلى الوقت الذي انفلت من بين يديه مسرعا، وتنبه أيضا أنه قرأ ثلاثة كتب فى جلسة واحدة تتحدث عن موضوعات نوبية مختلفة، فرد يديه ورجليه لآخرهما متمطيا، للم أشياءه وانتقى كتابين يتحدث أحدهما عن تاريخ النوبة، والآخر عن اختلاف العادات والتقاليد بين فرعى العرق النوبى (فديكى) - (ماتوكى) وتوجه إلى منزله.

دلف إلى الشقة ليجد أباه جالسا فى الصالة بانتظاره، ما أن لمحه حتى بادره بعصبية:

- أين كنت حتى الآن يا (معتصم)؟

تعجب (معتصم) من سؤال والده، فلم يعتد منه هذه الأسئلة، كما لم يعتد هذه الطريقة فى الحديث، لكنه أجاب فى هدوء:

- كنت فى مكتب (عمر) يا أبى.

لانت ملامح (مصطفى) مع ذكر (عمر) وهدأ صوته:

- يا ولدى.. مصيبتي في أخيك أكبر مما أحتمل، ولن أقوى أبدا أن يصيبك مكروه، كلنا يعلم لماذا قتل (عمر)، فلا تفجعني فيك.

- اطمئن يا أبى، اطمئن.

قالها (معتصم) فى سكينة واتجه إلى غرفته، وضع الكتب مع مفاتيحه وهاتفه على منضدة صغيرة بجوار سريره، حينما نظر إلى الهاتف شعر بالحنين الجارف ليحادث (شيماء)، أرسل لها رسالة قصيرة «ممكن أكلمك؟» لم تمض ثوان حتى علا صوت رنين الهاتف، وأضاءت الشاشة بكلمة (حبيبة قلبي)، تناول الهاتف مسرعا وفتح الخط:

ـ حقك عليَّ.

أتاه صوت (شيماء) ملهوفا مشتاقا:

ـ لقد قتلني القلق عليك يا (معتصم)، لماذا لم تخبرني بما حدث؟، هل تستكثر عليَّ أن أكون بجوارك فى مثل هذه الظروف؟ لماذا لم...

قاطعها (معتصم) متنهدا وكأنه يزيح عن صدره عبئا ثقيلا:

ـ أعذريني، لم أكن فى حالتي الطبيعية يا حبيبتي صدقيني، كنت في عالم آخر تختلف حساباته عن عالمنا، لم أكن أنا، حتى أنى لم أتمكن من فهم ما حدث إلى الآن.

تسرب بعض الأسى إلى صوتها:

ـ كنت أظن أنى معك دائما حتى لو كنت فى عالم آخر.

أجابها آسفا بصدق:

ـ صدقيني كان الأمر أقوى كثيرا من قدرتي على الاستيعاب، وأثقل من قدرتي على التحمل، وما زلت أحاول أن ألملم شتات نفسي.

شعرت بحنين جارف للنظر إلى عينيه وهى تقول:

ـ البقاء لله يا حبيبي، رحمه الله وجعله فى الجنة.

أسند ظهره إلى ظهر سريره:

ـ الحمد لله على كل الأحوال.

صدقت نبرات صوتها:

ـ كنت أتمنى أن أكون بجوارك طوال هذا الوقت، لكنى سعيدة أنك بخير.

ـ سأعود للعمل من الغد، هل سأراكِ فى المدرسة؟

ظهرت فرحة خجلة فى نبرات صوتها:

ـ طبعا، سأذهب غدا خصيصا لأجلك.

ـ إلى الغد إذن.

ـ لا إله إلا الله.

ـ محمد رسول الله.

أغلق الهاتف وهو يشعر أنه يسترد جزء من روحه التى كاد يفقدها مع فقده لشقيقه، لم يكن يدرك أنه مرتبط نفسيا بأخيه (عمر) إلى هذا الحد إلا بعد وفاته، لماذا لم يشعر بهذا الطوفان من المحبة الخالصة إلا بعد خسارته لأخيه، وكأن هذا الشعور هو عقوبته على تغافله السابق فى الاقتراب من شقيقه الوحيد، ما زاد حسرة (معتصم) أن (عمر) لم يرحل إلا حينما بدأت تولد بينهما مساحة للتقارب، وقدر من التفاهم أكبر مما كان بينهما، بدا أن خلافهما الأخير فى طريقه للذوبان بعد فترة من التوتر، تذكر ليلة زفاف (عمر) وحرصه الشديد أن يقيم فرحه فى النوبة، فرحة (أمينة) كانت غامرة فى هذه الليلة، الكل كان يعلم بقصة الحب التى نبتت بينهما منذ الصغر، ورغم إقامة (أمينة) فى النوبة وإقامة (عمر) فى القاهرة إلا أن بُعد المسافات زاد اشتعال الحب بينهما حتى تزوجا، ماذا ستفعل زوجة أخيه الآن؟ هل ستظل مقيمة فى شقتها بنفس العمارة؟ أم ستعود إلى النوبة؟ لو أنها قررت العودة سيزيد هذا من شعور الفقد لدى أبيه وأمه، سيحاول جاهدا

أن يعرف نيتها، وسيحرص أن تبقى بالقرب من أمه المكلومة، أخذته أفكاره إلى موضوعات شتى؛ حتى غزت جيوش النوم جفونه، ولم يحرره منها إلا صوت منبه الهاتف صباحا.

(٢٩)

جلست (أمينة) باكية فى غرفة نومها تتأمل صورة زفافها على (عمر)، تنظر إلى ابتسامتهما التي أضاءت الصورة، تلك الابتسامات التي دلت على فرحتهما وسعادتهما، تأملت ملامح (عمر)، لماذا مات (عمر) وبقى غيره؟ لا بد أن هناك حكمة ما وراء موته بهذه الطريقة، وكأن القدر يختار أصحاب الأرواح الشفافة الطاهرة، لأنهم لن يحتملوا هذه الحياة الظالمة أكثر، يرحلون لأن بقاءهم سيكون صعب، لن تحتمل براءتهم كل هذا التلوث الموجود فى هذا العالم الرديء، كيف ستمر الأيام بعدك يا (عمر)؟ كيف سأواجه العالم بدونك؟ هل تقوى روحي على الرحلة دون بوصلتك، ما زالت عيناك يا (عمر) بوصلة قلبي ودليلي، ما زال صدرك أمل رأسي في الراحة، ما زالت شفتاك أطيب ما تذوقت وأحلى ما اشتهيت وأروع ما عرفت، لماذا تركتني وحيدة في هذا العالم يا رجل؟ هل كانت القضية أحب إليك منى كى

تهبها روحك دونى؟، هل تدرك ما الذى فعله غيابك فى روحى؟، لقد قتلتنى يا (عمر)، سرقت منى الفرح برحيلك، اصطحبت معك الأمل إلى قبرك، هل أستحق منك هذا الجرح يا زوجى الحبيب؟ هل تأمن على حبيبتك من غدر الدنيا كى تتركنى وترحل؟ لماذا لم تأخذنى معك هذه المرة مثل كل مرة؟ آهٍ يا عمر، لن أملك بعدك سوى هذه الآه، لن أعرف بعدك سوى الانكسار، الوحدة، البرد، لن يسكن الحب قلبى بعد أن غادره معك، لن تعرف روحى بعدك سوى اليأس والموت، أسودَّ قلبى الأبيض، جفت فروعى بعد أن سقطت زهورك منها، وقريبا ستسقط هذه الشجرة بأكملها، وتموت دون ماءك.

* * *

جلس (معتصم) و(شيماء) فى أحد محال القهوة الشهيرة وكل منهما ينظر للآخر بعيون مملوءة بالحب والصدق:

ـ اشتقت إليك يا (معتصم)، كدت أن أجن لغيابك الذي طال.

مال (معتصم) ليقترب منها:

ـ اشتقت إليكِ أكثر يا حبيبتي، احكِ لي كل شيء بالتفصيل مررتِ به في الفترة الماضية.

هزت كتفيها:

ـ لا شيء، كل الأمور كانت فى حالة من عدم الوضوح، غيابك

عنى أصاب عقلى بالشلل، وسلب منى قدرتى على المقاومة، فلم احتك بأمى على الاطلاق، تكلم معى أبى لمرة واحدة طوال هذه المدة، ثم لا جديد.

تردد (معتصم) ولم يتمكن من التعليق على كلماتها، شعرت بتردده فسألته:

- ما لك يا (معتصم)؟ ما الذى تريد قوله وحبسه ترددك؟

نظر إلى عينيها مباشرة:

- تدركين طبعا الظروف التى أمر بها، وأظنك تفهمين أن مشروع زواجنا سيتأجل بعض الشيء، على الأقل لظروف الحداد، أمى لن تتقبل ببساطة فكرة ارتباطي قبل مرور عام على الأقل.

صمتت (شيماء) ولم تجد فى نفسها قوة على الرد، كأنها نسيت أن وفاة (عمر) سيرتبط بها بالضرورة تأجيل أمر زواجها من (معتصم)، لم ترغب فى تصديق هذه الحقيقة، شعرت أن الخطوة التى قطعوها للأمام، سيتراجعان بعدها عشرات للخلف، دارت عينها فى المكان وكأنها تهرب من مواجهة (معتصم)، هزت رأسها أخيرا:

- أدرك ذلك بالطبع.

لم تضف شيئا، نظرت إلى هاتفها وأخذت تعبث به، صمت (معتصم) أيضا وكأنه لم يتوقع ردّة فعلها بهذه الطريقة، مرت دقائق بينهما ثقيلة، صامتة، حزينة:

- أريد أن انصرف، لم أخبر أمى بتأخري اليوم.

نهض دون أن يرد، أشار للنادل ودفع الحساب، ثم انصرفا فى هدوء، أوقف لها سيارة أجرة سلم عليها وانصرف، لم يركب معها كالعادة، فى الطريق إلى المنزل شعر بميلاد شرخ فى بنيان حبه لـ(شيماء) بدا له أنها لم تتفهم موقفه، لم تشعر بالصراع الذى يدور بداخله منذ فقد أخاه الوحيد. فى السيارة سالت دمعة صامتة على خد (شيماء) وشعرت بميلاد نفس الشرخ فى حبهما، بدا لها أن (معتصم) يتخاذل بعد أن أشعل شرارة حماسها، أي تأجيل لمشروع ارتباطهما الآن سيؤدى إلى نتيجة سلبية، ستكون فرصة للدكتورة (سلوى) لتزيد من ضغطها على (شيماء)؛ كي تتنازل عن حبها لـ(معتصم)، كما أن موقف والدها الرمادي لن يساعد كثيرا وقت المواجهة المتوقعة مع والدتها، أيقنت أن كل خططها ستتغير بتغير ظروف (معتصم) التي أصبحت الآن أصعب من ذي قبل.

* * *

عند مروره أمام شقة أخيه، توقف (معتصم) وطرق الباب، بعد قليل فتحت (أمينة) ترتدي الأسود الذى نال من روحها أيضا ولم يكتفِ بملابسها:

ـ كيف حالك يا (أمينة)؟

خرج صوتها ضعيفا واهنا فاقد للحياة:

ـ بخير الحمد لله.

ظهر تعاطفه معها واضحا على ملامحه:

ـ هل تحتاجين شيء؟

هزت رأسها نفيا:

ـ لا حاجة لى فى هذه الدنيا سوى (عمر)، اطمئن ولا تشغل بالك بى، فلن تكون لى أى حاجة بعد ذلك.

صمت (معتصم) وشعر بغصة فى حلقه من رد (أمينة) فحار فى العثور على رد مناسب، إلى أن قطعت (أمينة) أفكاره:

ـ تتفهم طبعا سبب عدم دعوتى لك بالدخول.

ـ أُدرك طبعا، هذا أمر بديهى، لكن لماذا تجلسين وحدك، اصعدي واجلسي معنا، فلنتناول غذاء الحاجة (سيلة).

ردت فى حزن:

ـ لا رغبة لى فى الطعام يا (معتصم).

لم يجد جديد ليضيفه فدخل مباشرة فى الموضوع الذى جاء خصيصا لأجله:

ـ (أمينة).. هل ستبقين هنا؟ أم ستعودين إلى البلد؟

شعرت (أمينة) بدهشة من سؤال (معتصم)، كان هو نفسه السؤال الذى يدور بخاطرها قبل أن يطرق الباب، هل ستبقى فى هذه الشقة تتلظى بنار الذكريات؟ أم تتخلى عما بقى لها من (عمر) وذكرياته وتهرب إلى الجنوب؟، هل يعتبر ذلك تخليا عن زوجها الذى هامت فيه عشقا وذاب فى روحها حبا؟، طال صمتها وطال انتظار (معتصم)

حتى شعر بالحرج، فقرر أن يصعد إلى شقة أبيه، وما أن تحرك حتى سألته (أمينة):

ـ لماذا سألتني هذا السؤال يا (معتصم)؟

لما يشأ (معتصم) أن يراوغ فى الإجابة فاختار المباشرة:

ـ فى الحقيقة أخشى على أمى من شعور الفقد، لو أنكِ عدتي إلى النوبة، سيزيد شعور أمى بفاجعة موت (عمر)، أما بقاؤك أمام عينها، سيصب ماء الصبر على نار حزن قلبها.

اغتصبت (أمينة) ابتسامة بلا روح:

ـ ولد سؤالك فى رأسي قبيل أن تطرق الباب، أعدك أن مصلحة الخالة (سيلة) ستكون ضمن حساباتي.

اندهش (معتصم):

ـ الخالة (سيلة)!! أين ذهبت كلمة (أمى) التى تناديها بها دوما؟

زفرت (أمينة) بشدة حتى التهب الهواء بينهما:

ـ (أمينة) التى تعرفها يا (معتصم) رحلت مع زوجها إلى القبر، وتركتنى للدنيا جسدا خاويا يتحرك أمام الناس، فلا تغضب منى إذا لم أشبهها فى شيء.

زاغ بصر (معتصم) وشعر بوخزة حادة تخترق قلبه، يبدو أن خسارته لن تقتصر على أخيه فقط، بل ستمتد لتشمل ما بقى من رائحته. لم يضف جديدا رغم الكلمات التى احتشدت تصرخ فى ذهنه حتى اصمّت أذنيه، غادر دون أن يمنح كلماته فرصة الميلاد فماتت مختنقة بصرخاتها فى عقله.

(٣٠)

جلست (سيلة) فى حجرتها مغلقة النافذة، فلم يتمكن إلا شعاع ضوء شارد من الدخول، أمسكت بصورة (عمر) تتأمل ملامحه، بينما تسيل دموعها فى صمت موجع، سمعت صوت طرقات على الباب، فلم ترفع عينيها عن الملامح الغائبة، لكنها رفعت يدها تمسح الدمعات المتمردات:

ـ تفضل.

دخل (مصطفى) الحجرة بخطوات بطيئة، نظر إلى (سيلة) بأسى أثقل قلبه الحزين، اقترب منها وربت رأسها بحنو كأنه أبيها:

ـ إلى متى يا (سيلة)؟، ارحمي نفسك واسألي الله له الرحمة.

اختنق صوتها وهى تجيبه:

ـ إلى نهاية عمري يا «هوى»، إنه (عمر)، لن ينضب نبع دمعي أبدا ولن ينفد مداد حزني.

ضمها (مصطفى) إلى صدره، وترقرقت عَبَرة فى عينيه فأغلق عليها جفونه قبل أن تعصاه، وتنتحر فوق خده، مرر يده على خدها يمسح أثر ملوحة الحزن عن وجهها:

ـ ألا تظنين أنى حزنت عليه كما لم أفعل فى حياتي؟ فراق (عمر) كان الحمل الأثقل على قلبي.

رفعت (سيلة) رأسها تنظر إلى عين (مصطفى) بعين استوطنها الانكسار:

ـ أطلق عقال حزنك، الحزن الصامت يسلب الروح، ويميت القلب، أنا اسمح لدمعى بالميلاد؛ كى تخرج معه مرارة الحزن.

قطع حوارهما طرقات (معتصم) على باب الحجرة الموصد، فاعتدلت (سيلة) وسمح له (مصطفى) بالدخول، دخل متجها إلى أمه يقبل يدها، ثم قبل يد أبيه الذى ربت ظهره بحنان أب مكلوم فى ولده، جلس (معتصم) أمام والديه، فتصنعت (سيلة) الابتسام:

ـ كيف حالك يا وليدى؟

أجابها كاذبا:

ـ بخير يا أماه، بخير.

ـ أشعر بحاجتك للكلام يا بنى، ما الأمر؟

قالها (مصطفى) بصوت أوهنه فراق (عمر)، سحب (معتصم) نفسا قويا كي يجبر دقات قلبه على الهدوء:

ـ لقد تحدثت مع (أمينة) بشأن بقائها معنا وعدم عودتها إلى النوبة.

اقتربت (سيلة) منه وسألته فى لهفة:

- وبماذا أخبرتك يا ولدى؟

قبل أن يجيب (معتصم) أمسك (مصطفى) يد (سيلة) مترقبا ونبضات قلبه تتسارع:

- طلبت مهلة للتفكير، لم تحسم الأمر بعد.

اضطربت (سيلة) من إجابة (معتصم) أرادت أن تعلق لكن صوتها رفض أن يستجيب، كذلك صمت (مصطفى) و(معتصم)، قرأت (سيلة) فى عين (معتصم) حزن آخر غير حزنه على أخيه:

- كيف حال (شيماء) يا (معتصم)؟

التفت (مصطفى) إلى (سيلة) متعجبا من سؤالها وعينيه يملؤها العتاب، بينما ألجمت الدهشة لسان (معتصم) لدقيقة قبل أن يجيب:

- بخير يا واندى.

- واندى؟ من أين تعلمت هذه الكلمة يا (معتصم)؟

سأله (مصطفى) بصوت بدأت الفرحة تقترب منه، فأجاب (معتصم) وصدره يرتفع فى فخر:

- لقد بدأت أتعلم النوبية يا أبى منذ أسبوعين، أفادتني كثيرا كتب (عمر) فى الأمر.

عادت اللهفة من جديد إلى صوت (سيلة):

- كتب (عمر)؟، هل تذهب إلى مكتبه يا ولدى؟

ابتسم (معتصم) للمرة الأولى منذ شهور وبدا متحمسا:

ـ كل يوم يا واندى منذ عدنا من النوبة، تضم مكتبته جانب كامل عن النوبة، أتعلم يا أبت ما الذى كتبه فوق هذا الجانب؟

سأله (مصطفى) فى لهفة:

ـ ماذا يا ولدى؟

ـ إركى، لقد كتبها بالعربية والنوبية، إركى، الأرض، أرض النوبة، الوطن يا أبى، الوطن، حينها قرأت هذه الكلمة شعرت بأن دماء (عمر) التي سالت لم تشربها الأرض، بل امتصتها شراييني وأنا احتضنه.

كان يحمل مشاعر متضاربة وهو يتحدث، ما بين الفخر بأخيه والحزن عليه، أمسكت (سيلة) بيده فى تضرع:

ـ حينها تذهب الليلة خذني معك.

نظر (معتصم) نحو والده وكأنه ينتظر منه الإذن، أومئ (مصطفى) رأسه بعلامة الرضا، فقبل (معتصم) يدها:

ـ سأمر عليكِ فى الثامنة إذن.

أراد أن يقوم من مجلسه لكن (مصطفى) أستوقفه مترددا:

ـ هل ما زلت تفكر فى أمر (شيماء)؟

نهض (معتصم) وعيناه تدور فى أرجاء الغرفة متهربا من مواجهة والده:

ـ أفضل أن نؤجل هذا الحديث يا أبى، فقلبى لا يسكنه الآن إلا حزنى على أخى، اسمح لى بالانصراف.

أشار (مصطفى) له بالموافقة فخرج.

التفتت له (سيلة) وصوتها يملؤه التصميم:

ـ أرجوك يا زوجى، أنا لا أريد أن أخسر (معتصم) مثلما خسرت أخيه.

نظر لها (مصطفى) متعجبا:

ـ ما الذى جعلك تظنين أنك ستخسرين (معتصم)؟

أجابته فى تضرع:

ـ مسألة زواجه من (شيماء)، دعه يتزوجها يا «هوى».

أطرق (مصطفى) مفكرا، وما زالت (سيلة) تنتظر تعليقه، بعد دقيقه رفع رأسه:

ـ الأمر صعب على نفسي أن تقبله يا (سيلة).

أمسكت يده:

ـ الأصعب منه أن يفلت الأمر كله من يدنا يا زوجى الحبيب، تعلم عناده وصلابة رأيه، وتعلم مدى حزنه على أخيه، وما الذى قد يفعله، ربما تزوجها رغم عنا وقاطعنا، وأنا لن أحتمل خسارته.

حار صوت (مصطفى) بين الفرح بالتغير الذى أصاب (معتصم) والحزن الذى ما زال يسكنه لوفاة (عمر):

ـ لكن ألا ترين التغيير الذى تسلل إليه؟ لقد بدأ يقرأ عن النوبة، ويتعلم لغتها، ألم تلاحظي أنه يرتدى «العراجى» أغلب وقته منذ عدنا

من البلدة؟ ظهر الفخر فى صوته حينما نطق «إركى» لأول مرة.

بدت (سيلة) نافذة الصبر وهى تعلق:

ـ لكنه على عناده القديم فيما خص (شيماء)، ألم تلحظ أنه رفض ـ كعادته ـ النقاش فى الأمر حين سألته عنها، لا يرغب أن يمنح أحدنا فرصة للتأثير عليه بشأنها.

جثت (سيلة) على ركبتيها وهى تمسك يد (مصطفى) متضرعة إليه:

ـ استحلفك بالله يا زوجى أن تحافظ لى عليه، استحلفك بأبيك وأمك رحمهما الله.

ثم تهدج صوتها وهى تضيف:

ـ استحلفك برحمة (عمر)، احفظ لى ولدى الباقى، أرجوك.

أمسك (مصطفى) بزوجته ينهضها، قَبّل رأسها وضمها إلى صدره، لف ذراعيه حولها بقوة ومسح بيمناه ظهرها عدة مرات ثم ربته وهو يقول:

ـ فلتأملى خيرا يا حبيبتى، أعدك ألا تفقدي ولدك إن شاء الله.

(٣١)

ـ مر يومان لم تهاتفنى فيهما، هل تخاصمنى؟

قالتها (شيماء) وهى تقف على باب مكتب (معتصم) بالمدرسة، حرصت أن ترتدي ألوان قاتمة احتراما لحزنه، لكن ابتسامتها أضاءت وجهها، فتسلل نورها إلى روحه، فملئت وجهه ابتسامة مماثلة:

ـ من قال أنى أخاصمك؟ أنا لا أنوى الانتحار عما قريب.

اقتربت منه بدلال، نظرت إلى عينيه:

ـ أحبك.. سامحنى لو أغضبتك، اغفر لى أى زلة حدثت منى، سواء قصدتُ أو لم أقصد.

أشار لها أن تجلس:

ـ من الذى يطلب الغفران ممن؟ كيف يمكن أن تطلب الملائكة غفرانا وهم لا يخطئون، أرجو أن تسامحى انشغالي عنك.

جلستْ على الكرسى المقابل لمكتبه:

ـ عندى سؤال حبيس صدرى منذ أيام.

ـ أطلقي سراحه يا حبيبتى.

ترددت قليلا قبل أن تقول:

ـ هل هناك جديد فى موقف أسرتك من ارتباطنا؟

حار (معتصم) فى الإجابة، لكنه أطلقها مع زفرة حارة وهو يهز رأسه نفيا:

ـ لا جديد، حاول أبى أن يفتح نقاشا معى بالأمس، لكننى لم أتكلم فى الموضوع.

ارتسمت على وجهها علامة استفهام:

ـ ولِمَ؟

ـ أنت لا تعرفين أبى مثلما أعرفه يا (شيماء)، لا يمكن أن يتغير بهذه السهولة، وكما أخبرتك من قبل، أمى لن تتقبل فكرة زواجي قبل سنوية (عمر) رحمه الله، فى خلال هذه الفترة سأحاول جاهدا لكن دون صدام مباشر مع أبى أو أمى، لأن أجواء المنزل متوترة بما يكفى.

نظرت إليه بحب:

ـ تعلم أنى سأنتظرك مهما طال الوقت.

بادلها نفس النظرة:

ـ تعلمين أنى لك مهما كانت العقبات.

نهضت متجهة نحو الباب:

ـ لدى حصة الآن، أراك فيما بعد.

ابتسمت بصفاء وخرجت من المكتب، تابعها بنظراته حتى اختفت وهو يبتسم.

* * *

عادت (شيماء) إلى منزلها وعلامات الارتياح ترتسم على وجهها، كانت والدتها تعد الغداء قبل أن تذهب للعيادة فى تمام السابعة كالعادة، لمحت وجه (شيماء) المبتسم فبادلتها الابتسام:

ـ أهلا حبيبتى، بدلى ملابسك وانضمي إلينا إلى المائدة.

خرج صوت (شيماء) فرحا:

ـ أهلا أمى، كيف حالك اليوم؟

أشرق وجه (سلوى) فتلك واحدة من المرات القليلة التى يدور فيها حوار حميم بينها وبين ابنتها:

ـ بخير يا حبيبتى.

أرسلت (شيماء) بصرها فى المكان وتساءلت:

ـ أين أبى؟

أجابتها وهى تضع أدوات المائدة بجوار الأطباق:

ـ يبدل ملابسه وسيخرج علينا حالا.

فى تلك اللحظة خرج والدها من حجرته. ابتسم لابنته وقبل جبينها، احتضنته وقبلت خده كعادتها، ثم ذهبت إلى حجرتها وارتدت ملابس المنزل وبعدها خرجت تشاركهم الطعام.

ـ هل من جديد تحكيه لى يا حبيبتى؟

خرج السؤال من فم (سلوى) متوجسا وقلقا، نظرت إليها (شيماء) وفى هدوء أجابت:

ـ كل خير يا أمى.

أراد (محمد) أن يشاركهما الحديث، وقد فهم ما ترمى إليه زوجته:

ـ كيف حال (معتصم) الآن؟

ترددت (شيماء) قبل أن تحسم إجابتها:

ـ بخير يا أبى والحمد لله، تتحسن حالته النفسية ويعود إلى طبيعته تدريجيا.

لم تنظر إليها (سلوى) وهى تلقى سؤالها مفجرة قنبلة من التوتر فى الأجواء:

ـ هل لا يزال والده معارضا لزواجكما؟

تجاوزت (شيماء) المفاجأة ثم أجابت فى ثبات وثقة:

ـ الأمور تتغير يا أمى، لا يبقى شخص على حاله، تمسُّك (معتصم)

بى يمنحنى الأمل أن صلابة والده ستلين فى النهاية، وأرجو إن فعل، ألا نصطدم جميعا بصلابة شخص آخر.

تركت (سلوى) أدوات المائدة من يدها، وهى تنظر لابنتها محاولة إخفاء الحدة من صوتها:

ـ من تقصدين بالصلب الآخر؟

تدخل (محمد) لتهدئة التوتر:

ـ هى لم تقصد شخصا بعينه، بل تتكلم بشكل عام، وأظن أننا نتناقش فى أمر قبل أوانه، دعونا ننتظر القادم من الأيام.

نظرت له (شيماء) وكأنما وجدت فى كلماته عونا لها:

ـ كلى أمل أن تتحسن الأمور يا أبى، رغم حزنى الشديد لوفاة شقيقه (عمر) إلا أن الأمر لا يخلو من فائدة، على الأقل أغلقنا باب الخوف من مشكلاته السياسية.

نظرت إلى أبيها نظرة ذات مغزى، ثم أردفت فى هدوء:

ـ بقيت أمامنا عقبة وحيدة تتمثل فى عناد أبيه وأظن أننا قادرون على تخطيها فى وقت ما.

علقت (سلوى):

ـ براجماتية.

نظرت (شيماء) إلى أبيها مستفهمة فأجابها:

ـ مصطلح سياسي، أحد تعريفاته يقصد به الأشخاص اللذين يهتمون للمنفعة فى المقام الأول.

نظرت إلى أمها بثقة:

ـ أظنه أمر يقتل قلقك يا أمى، ألستِ ترفضين (معتصم) لأجل منفعتي؟، على الأقل تطمئنين الآن أنى أبحث عن المصلحة.

كان تعليق (شيماء) مستفزا لأمها للدرجة التي امتنعت معها عن التعليق، فاستمرت فى تناول الطعام صامتة.

(٣٢)

دخلت (سيلة) إلى مكتب (عمر) مع (معتصم) مثلما وعدها صباحا، تحسست الكرسي الذى كان يستعمله ثم قبلته، جلست عليه وتأملت المكان من حولها، حرصت ألا تسيل دموعها، أغمضت عينيها وأراحت رأسها للخلف تستند إلى ظهر الكرسي فى نعومة، تسارعت أنفاسها من التوتر الذى اعتراها حين غزا مخيلتها وجهه مبتسما، كاد لسانها يتحرك بكلمات الاشتياق الحبيس، لولا يقينها أنها ستصله حتى لو لم تخرج من بين شفتيها، كان (معتصم) يتأملها ويشعر بداخله بالشفقة على أمه المكلومة فى أخيه، كان يعلم جيدا أن أمه لم تكن تحب أي منهما بأكثر من الآخر، لكن بعد الغياب أصبح أقرب، أدرك ذلك ولم يضايقه، كان يشعر أيضا أن (عمر) أصبح أقرب إليه مما مضى، لقد تعلم اللغة النوبية كى يصبح (عمر) أقرب، قرأ عشرات الكتب من مكتبته حتى يفهم ما فهم، حرص على ارتداء

الجلباب النوبى ليصبح صورة منه، لكن لماذا يرغب أن يكون (عمر) فى جسد (معتصم)؟، لماذا يرغب فى ملء الفراغ الذى تركه؟ أسئلة ألحت عليه أياما، وعقم عقله عن إنجاب إجابات لها، فاضطر أخيرا للاستسلام لفكرة أن محبته لأخيه سبب كاف كإجابة، رفعت (سيلة) رأسها وفتحت عينها، وجدت (معتصم) فى عالم آخر:

ـ هوى.. أين ذهبت؟

انتبه (معتصم) فابتسم لأمه:

ـ هه؟.. ماذا قلتِ يا واندى؟

التمعت ابتسامة (سيلة):

ـ تخرج كلمة «واندى» منك ممزوجة بالعسل.

تبسم خجلا من إطراء أمه التي أردفت:

ـ أتدرك أن أباك فخور وسعيد جدا بتعلمك النوبية؟

ـ لاحظت طبعا حين بدأ يكثر من الحديث بها معى طوال اليوم، كان يتعمد أن يقول كلمات جديدة فى كل مرة؛ كى يعلمنى المزيد منها.

ـ (مصطفى) يحبك كثيرا يا ولدى.

ابتلعت الابتسامة وجه (معتصم):

ـ أول مرة أسمعك تذكرين اسم أبى مباشرة دون ألقاب.

اعتراها الخجل من تعليق (معتصم):

ـ أريد أن أطلب منك طلبا يا ولدى.

قال (معتصم) مسرعا:

- تفضلى يا أمى.

- لا أريدك أن تخسر أباك، طع كلامه يا ولدى.

فهم (معتصم) ما ترمى إليه فحاول ألا يحتد:

- موضوع زواجى من (شيماء) لا يحتاج..

قاطعته أمه بإشارة من يدها وابتسامة هادئة:

- أهدئ يا (معتصم)، حاول أن تكون منطقيا يا حبيبى.

- الحب لا علاقة له بالمنطق يا أمى.

- هل تحبها حقا؟

أطرق مبتسما:

- نعم يا واندى، أحبها.

- أتمنى لك السعادة يا ولدى.

أحاط صوته اللهفة:

- سعادتي معها يا أمى.

تأملته (سيلة) مطولا، وعيناه يملؤها الرجاء، وحين طال الصمت أضاف:

- احتاج مساعدتك يا واندى، لعل أبى يتغير.

- ربتت كتفه فى حنان وتبسمت:

- سأساعدك يا صغيري، اطمئن.

قفز (معتصم) من السعادة:

ـ حقا يا أمى؟، ستفعلين.

ـ نعم يا ولدى، سأفعل.

اغرق يديها ورأسها بالقبلات وهى تضحك بصوت عال:

ـ هيا يا ولدى، أعدني إلى البيت، لقد تشبع قلبي من (عمر) وامتلئ بالفرحة من أجلك.

* * *

لحظة مرور (سيلة) أمام باب شقة (عمر) طلبت من (معتصم) أن يسبقها إلى أعلى، طرقت باب الشقة وانتظرت حتى فتحت (أمينة)، ملامحها أصبحت جامدة لا تشي بأى مشاعر، حزنها صنع هالة سوداء على وجهها، أفسحت الطريق:

ـ تفضلي يا خالة، أهلا بكِ فى بيتك.

دلفت (سيلة) إلى الداخل تقلب نظرها فى المكان الذى ثقل هواؤه بعد رحيل صاحبه، جلست إلى أقرب مقعد والتفتت نحو (أمينة):

ـ عندى كلمات قليلة وسأتركك وشأنك يا بنيتى.

خرج صوت (أمينة) منكسرا وهادئا:

ـ تفضلى يا خالة.

ـ اعلمي يا بنيتى أن حزنى على (عمر) لن يفوقه حزن بين العالمين، فقد كان نور عينى ونبض قلبى، ولا مانع عندى طبعا أن تحزنى على زوجك وحبيبك وشريك عمرك كيفما شئتِ، لكنى لا أرضى أن يأكل الحزن قلبك، ويسلب منك روحك، لن أحتمل أن تذبل زهرة شبابك بهذه الطريقة.

دون أن تدرى سالت دموع (أمينة) الصامتة، فاقتربت منها (سيلة) وضمتها تربت على ظهرها، ما أن مس رأسها صدر (سيلة) حتى انهارت من البكاء، وخرجت دموعها غزيرة جدا، استمرت تبكى لمدة طويلة وقلب (سيلة) يتمزق لأجلها، لكنها تدرك أن هذا البكاء سيزيح من قلبها جبال الثلج التى تكونت خلال الفترة السابقة، انتهت (أمينة) من البكاء أخيرا، لكن خرجت كلماتها مصحوبة بنهنهات البكاء الباقية:

ـ انكسر قلبى بغيابه، شعرت كأنه تخلى عنى، حزنى لفراقه أكبر من قدرتى على الاحتمال، لم اعرف فى عمرى إلا (عمر) ولم يدق قلبى لسواه، فلماذا يرحل هو ويبقى غيره؟.

شعرت (سيلة) أن فضفضة (أمينة) ستزيح جزءا أكبر من جبل الجليد، فاكتفت بضمها إلى صدرها بحنان ومنحتها سمعها ووجدانها بالكامل. ظلت (أمينة) تحكى عن (عمر) وذكرياتها معه، مدى عشقهما، طموحاتهما وأحلامهما حتى غلبها النوم، ساعدتها (سيلة) فى الدخول لحجرتها، أخبرت (مصطفى) بالمبيت الليلة بصحبة (أمينة) ووافق. فى الصباح استيقظت (أمينة) بوجه آخر غير الذى رأته (سيلة) بالأمس.

(٣٣)

صعد (معتصم) إلى شقة أبيه بعد أن ترك أمه مع (أمينة) فى شقة (عمر)، فتح الباب بيد مترددة، تنتابه الأفكار وتتصارع داخل رأسه، أيهما يسيطر على لسانه أولا، دلف إلى صالة الشقة شاردا، يتخيل طرائق عدة للحوار مع والده، يستبق ردودا مختلفة لكل كلمات والده المتوقعة، وجد أباه فى الصالة يشاهد نشرة الأخبار، جلس بجواره بعد أن سلم عليه، وقبَّل رأسه، نظر له (مصطفى):

ـ عينيك حبلى بالكلام يا (معتصم).

تبسم (معتصم) ابتسامة متوترة:

ـ كلماتي مخاضها صعب يا أبى.

ـ لا شيء صعب فى الحياة يا ولدى طالما توفرت له الإرادة، وأنا اعرف أن إرادتك صلبة، لهذا أتوقع ميلاد كلماتك، مهما كان مخاضها صعبا.

اعتدل (معتصم) فى جلسته ليواجه والده:

ـ أبى، كلماتى التى تتوقعها ستكون عن (شيماء) وأفضل أن أتكلم معك حينما تكون مستعدا للحوار.

فاجئه هدوء (مصطفى) وهو يجيبه:

ـ أنا مستعد دائما للتحاور معك يا ولدى، فمن لك أقرب من أبيك كي يسمعك، تكلم وستجدني مصغيا.

تردد (معتصم) من كلمات أبيه، فقد توقع ردود أفعال كثيرة ومختلفة، وتحضر لها جميعا، لكنه لم يتجهز برد أمام هذا الهدوء، فى النهاية حسم أمره:

ـ (شيماء) يا أبى، ستبقى هى الموضوع الأهم بالنسبة لى.

نظر (مصطفى) إلى (معتصم) نظرة جادة وقال له فى حزم واضح:

ـ ألن ننتهي من هذا الموضوع يا ولدى؟

مرة أخرى يعود التردد ليسكن صوت (معتصم):

ـ لكن يا أبى حضرتك متأكد من أنى لن أنتهي من هذا الموضوع، لقد تكلمنا مرارا من قبل، وتعرف مدى تمسكي بها وبالزواج منها.

شعر (مصطفى) بنفاذ صبر:

ـ ألا تجد أنه من غير المناسب بالمرة أن تعاود فتح هذا الموضوع ولم تنقضي سوى أربعة أشهر على وفاة أخيك؟

ـ يا أبت أنا لا أرغب فى الزواج الأسبوع القادم، كل ما أطلبه فى هذه المرحلة هو موافقتك على خطوات مبدئية كقراءة الفاتحة على أقصى تقدير،

ولن تكون هناك أي مظاهر احتفالية إلا بعد سنوية (عمر) رحمه الله.

لانت ملامح (مصطفى) وهدأ صوته:

- يا ولدى ما تطلبه صعب.

- لكنه ليس مستحيلا يا أبى.

أراد (معتصم) أن يكسر من حدة الموقف فأضاف:

- هل تشرب شاى يا حاج؟

- أنا لا أشرب الشاي إلا من يد (سيلة).

- عدنى يا أبى أنك ستفكر فى الأمر.

قالها (معتصم) وانصرف دون أن يسمع صوت (مصطفى) الخفيض وهو يتمتم:

- أعدك.

دلف (معتصم) إلى حجرته كى يهاتف (شيماء)، لكنه لم يكن متأكدا من معنى حواره مع أبيه، هل بدأ يلين؟ أم أنه يتفادى الصدام، ولكنه ما زال متمسكا برأيه دون تغيير؟ ظل يفكر فى دلالات الحديث مع أبيه، ويتصيد منها الإشارات التى ترضيه، على الأقل قبل أبوه المناقشة فى الأمر، بعد أن كان باب الحديث فيه مغلقا بلا مفتاح، لأول مرة ينطق اسم (شيماء) أمام أبيه، ولا يجد منه تجهما أو رفضا أو غضبا، حتى أنه ناقشه فى توقيت طرح المسألة، وجدها إشارات تفيد أن أباه يتغير، لكنه لم يلمس ذلك صراحة، لذا بقى مترددا، فآثر ألا يخبر (شيماء) بشيء حتى يجد يابسة يرسو عليها فى هذا المحيط الهادر.

اخرج هاتفه وفتح حسابه على الفيسبوك، قام بتغيير الاسم من (معتصم مصطفى) إلى (معتصم جُلق)، ثم كتب على صفحة حسابه «أُورُم لآكين مَاللِّ جِنَا»، بعد قليل علق أحد زملائه فى المدرسة:

ـ أين الترْجمة؟

تبسم (معتصم) وهو يكتب تعليقه:

ـ هذا مثل نوبى ترجمته «أسود لكن الأسمر أفضل».

ثم أضاف وجها مبتسما إلى جوار تعليقه، لم تمض دقيقة حتى علق نفس الصديق:

ـ الترجمة تحتاج إلى ترجمة يا صديقي.

قهقه (معتصم) بصوت مسموع فأضاف تعليقا:

ـ المثل يساوى المثل العامي «نصف العمى ولا العمى كله»

لم ينتظر أن يتابع باقي التعليقات، أغلق الهاتف، وتناول كتابا من كتب (عمر) النوبية كي يقرأه، كان عنوان الكتاب (العادات والتقاليد النوبية) انتقل مباشرة إلى الفهرس، جرى بعينيه فوق السطور حتى وصل مبتغاه «عادات الزواج» نظر إلى رقم الصفحة، وانتقل مباشرة إليها، وأخذ يلتهم السطور حتى ثقلت جفونه وسقط أسيرا لسلطان النوم.

(٣٤)

الحزن الصامت هو أقصى أنواع الألم، هكذا حدثت (سيلة) نفسها وهى تنظر إلى وجه (أمينة) وهن يتناولن الفطور، لماذا يختار الحزن أطهر القلوب كي يسكنها؟ لماذا يختار سهمه الأرواح النبيلة كي يقتنصها؟ كقلب وروح (أمينة)، لن تتحمل (سيلة) فقدا آخر فى حياتها، لن تتقبل سفر (أمينة) إلى النوبة، فهى الباقية من رائحة (عمر) ولن تتحمل ابتعاد (معتصم) فهو الفؤاد الباقى لها كى تعيش، قررت أن تفعل المستحيل كى تحتفظ بهما، فى الظهيرة حينما أوى (مصطفى) إلى مخدعه للقيلولة التى يقدسها، تناولت هاتفه، أخرجت رقم (دهيبة) واتصلت بها:

ـ ألو.

ـ أهلا (دهيبة).

جاوبتها (دهيبة) بقلق بالغ:

ـ (سيلة)؟ خيرا؟ هل حدث شيء؟

سيطرت (سيلة) على نبرة صوتها حتى لا تفزعها، فالفزع لن يحل شيئا:

ـ اطمئني يا أختي الأمور بخير.

هدأ صوت (دهيبة):

ـ يا رب دوم.

أضافت (سيلة) فى تصميم واضح من صوتها:

ـ اسمعيني جيدا يا (دهيبة)، أنا بحاجة ماسة إليكِ.

بدت اللهفة فى صوت (دهيبة):

ـ أخبرينى يا (سيلة) ولن أتأخر.

ـ (أمينة).

أصاب (دهيبة) الجزع:

ـ ما لها؟

ـ لم تعد كما كانت، تذبل زهرة شبابها وتغرب شمس فرحتها أمامي ببطء، ولا أملك لها شيئًا.

هدأ صوت (دهيبة) قليلا:

ـ امنحيها بعض الوقت يا (سيلة)، فراق (عمر) زرع الصبار فى قلوبنا جميعًا، فصارت حياتنا مُرة كالعلقم، لقد كان الزينة فى العائلة والموت ينتقى النبتة الأطيب لحصاده.

تساءلت (سيلة):

ـ فهل نتركها لحزنها حتى نخسرها يا (دهيبة)؟
ـ معاذ الله.

خرج صوت (سيلة) منها آمرا:

ـ تعالى إلى القاهرة فورًا، يجب أن نكون بجوارها حتى تكفر بحزنها الذى تتعبد فى محرابه ليل نهار.

* * *

لم تصدق (شيماء) عينيها حين رأت والدها فى سيارته منتظرا أمام بوابة المدرسة التي تعمل بها، اتسعت ابتسامتها، وهرولت نحو أبيها، فتحت باب السيارة وارتمت على الكرسي المجاور له، ثم ألقت نفسها فى حضنه تقبله:

ـ يا لها من مفاجأة سارة يا أبى، أسعدني مجيئك.

ابتسم (محمد الفقى) بحنان لابنته ثم قرصها بأبوة فى خدها الأيسر:

ـ دائما يأسرني معسول كلامك يا حسنائي الحبيبة.

أمام بوابة المدرسة وقف (معتصم) من بعيد يراقب هذا المشهد، عرف (محمد) من الصور المحفوظة على هاتف (شيماء)، اشتعل ذهنه بأفكار متعددة، ثم تقدم نحوهما بخطوات ثابتة حتى اقترب من السيارة من ناحية (محمد)، انحنى ليقترب من نافذة السيارة، بابتسامة

واسعة ويدٍ ممدودة بالترحاب:

ـ مساء الخير.

التفت (محمد) إلى مصدر الصوت، فى نفس اللحظة التي هربت فيها الدماء من وجه (شيماء) لهذه المفاجأة، مد (محمد) يده ليصافح (معتصم):

ـ أهلا وسهلا.

ـ (معتصم جُلق).

أخذ الارتباك عقل (محمد) لثانيتين فقط، لكنه سيطر على انفعالاته، خرج من السيارة وهو يقول لنفسه «تماسك، المفترض أن يرتبك هو لا أنت» أعاد مصافحة (معتصم) وتعمد أن يصافحه بقوة:

ـ تشرفت بك.

ـ أظن أن حضرتك تعرف أسمي على الأقل.

رأى (محمد) لمعة الذكاء فى عين (معتصم) وابتسامة الثقة على شفتيه، والثبات يحكم صوته، فجعله ذلك يحترم (معتصم) فى قرار نفسه، فى هذه اللحظة خرجت (شيماء) من السيارة، ودارت حولها لتجاور والدها وتنظر إلى عين (معتصم) بسعادة وحب، فها هو يخطو خطوة كبيرة فى أمر ارتباطهما، إنه يقف أمام والدها الآن ليتعارفا، سمعت والدها يقول:

ـ بالطبع اعرف اسمك يا بنى، كنت أتمنى أن أعزيك فى وفاة شقيقك، لكن الظروف لم تسمح وقتها.

ـ البقاء لله يا «عمى» لا أراكم الله مكروها.

أراد (محمد) أن يكون عمليا ويرسل رسالة جادة إلى (معتصم) فخرج صوته ثابتا بلا ابتسام:

ـ تحت أمرك.

لم يرتبك (معتصم) من مبادرة (محمد) فقد كان يتوقعها:

ـ الأمر لله وحده يا «عمى» كل ما فى الأمر أنى أحببت التعرف إليك، وحينما رأيتك وجدتها فرصة مناسبة كى أطلب منك موعدا نحتسى القهوة سويا فى أي يوم.

هز (محمد) رأسه مفكرا، وعادت الابتسامة ترتسم على وجهه من جديد:

ـ هات رقم هاتفك.

أملاه (معتصم) رقم الهاتف، فرد عليه (محمد):

ـ سأتصل بك قريبا لنحدد موعدا.

بادره (معتصم):

ـ سأكون وحدي يا سيدي.

ـ لا بأس، دعنا لا نستبق النتائج.

قالها ثم ركب إلى السيارة مرة أخرى، وهو يضيف:

ـ سعدت بالحديث معك، إلى اللقاء.

ركبت (شيماء) بجوار والدها، وقلبها يملأه السعادة، نظر لها (محمد):

ـ غريب أمره.

ـ لماذا؟

ـ لم أكن أظنه بهذه الجرأة.

قالت (شيماء) بثقة:

ـ هذا لأنه جاد، لو كان يلهو لتوارى منك.

وجد (محمد) كلمات (شيماء) منطقية فتبسم:

ـ سأقابله.

قفزت الفرحة إلى كلمات (شيماء) وهى تعتدل فى كرسيها لتواجه أبيها:

ـ حقا يا أبى؟ متى ستفعل؟

قهقه (محمد) وأضاف:

ـ الصبر يا بنيتي، سأتدبر الأمر أولا.

(٣٥)

طرق (معتصم) باب حجرة والده وقلبه يدق بعنف، لا يعرف ماذا سيكون رد فعل والده على خطوته الأخيرة، لم يكن شخصيا يعرف، هل هى خطوة حمقاء؟ أم خطوة جريئة؟ سمع والده يسمح له بالدخول ففعل، خطا خطوة مترددة إلى الداخل:

ـ ما بك يا ولدى؟ لماذا تطل علينا بوجه نهشه الاصفرار؟

سحب (معتصم) فى شهيقه كما كبيرا من هواء الحجرة ربما يساعده على الهدوء:

ـ لقد قابلت والد (شيماء) اليوم، وطلبت منه أن نحتسى القهوة معا.

اعتدل (مصطفى) بحدة واتسعت عيناه:

ـ هل تتحداني يا (معتصم)؟

سارع (معتصم) بالإجابة:

- بالطبع لا يا أبى، لا يمكن أن أتحداك.

صرخ فى وجهه:

- فما معنى فعلتك هذه؟

جلس (معتصم) على حافة الكرسي المواجه لسرير أبيه، وحافظ على هدوء نبرات صوته:

- يا أبتِ.. أرجوك تفهم وجهة نظري، ألا تلاحظ التغيير الذى طرأ على حياتي وتغلغل فيها؟ أصلى النوبى لم يعد يمثل إزعاجا بالنسبة لي، لقد أصبحت أفتخر بهذه الأصول، لقد تعلمت اللغة النوبية، رغبتي فى الزواج من (شيماء) لا تعنى تمردا على نوبيتي، ولا تنصلا من أصلى العريق، إنما هو الحب، الحب الذى يسيطر علينا رغما عنا.

خرج صوت (مصطفى) ممزوجا بالغضب:

- الحب هو نبتة الشر الذى يسيطر على عقلك فيسلبك إياه.

نهض (معتصم) وبدأت القوة تتسلل إلى نبرات صوته والعزم يرتسم على ملامحه:

- ألا تحب أمى؟ لماذا لا تعتبر هذا الحب نبتة من نبتات الشر؟ الحب شيء نبيل يا أبى.

ارتفعت نبرة صوت (مصطفى) واحتد على (معتصم):

- اسمع يا فتى، لا أريد نقاشا آخر فى هذا الموضوع، هل تفهم؟

جاءت (سيلة) مهرولة من المطبخ إثر صوت (مصطفى) العالى:

- ما الأمر؟، ماذا يحدث؟

أشار (مصطفى) نحو (معتصم):

- الأستاذ.. قابل والد (شيماء) وطلب أن يتحدث معه دون إرادتي، إنه يتحداني.

نظرت (سيلة) نحو (معتصم) والدهشة تحتل نظراتها، بادرها (معتصم):

- كل ما فى الأمر يا واندى أنى قابلت الرجل مصادفة أمام باب المدرسة اليوم، وكان لا بد أن اسلم عليه.

نظرت (سيلة) نحو (مصطفى) والرجاء هو المعنى الوحيد الذى ترسله نظراتها:

- يا هُوى، ألم نتحدث فى هذا الأمر؟ ألم تعدني أن تحافظ لى عليه؟

جلست (سيلة) على الكرسى والدموع تسيل على خديها:

-لن أحتمل خسارة (معتصم) أيضا، ما المانع من زواجهما؟، العادات والتقاليد؟ لن اهتم لها إذا حرمتنى ولدى، نحن من صنع من العادات والتقاليد صنما نسجد له، وبيدنا يمكننا تدميره أو تغيره...

قاطعها (مصطفى):

- (سيلة).. ليس هذا الوقت المناسب لكلماتك تلك.

وقفت (سيلة) فى مواجهة (مصطفى) وتسرب شيء من الحدة إلى صوتها لأول مرة منذ تزوجته:

ـ بل هو وقته، لن انتظر حتى يفارقنى ليتزوجها، لن احتمل حرمانى منه.

ربت (معتصم) على كتف والدته ومسح دموعها:

ـ لا تخافى يا واندى، لن أفارقك أبدًا، سواء تزوجت (شيماء) أو أضربت عن الزواج، لن احتمل أبدا بعدى عنك.

ابتسمت (سيلة) واحتضنت (معتصم) وقبلت وجنتيه:

ـ لا حرمنى الله منك يا صغيرى.

سمعوا صوت طرقات على باب الشقة، فذهب (معتصم) ليفتح فيجد (أمينة) أمامه، تهلل وجهه وهو يفسح لها لتدخل:

ـ أهلا وسهلا يا (أمينة) شرفتي بيتك.

دخلت (أمينة) وعلامات التساؤل تحتل وجهها:

ـ ما الأمر يا (معتصم)؟، لماذا يرتفع صوت عمى إلى هذا الحد؟

ما أن لمحتها (سيلة) حتى هرولت إليها تحتضنها فى محبة جارفة:

ـ أهلا بنيتى، شرفتى بيتك من جديد.

خرج (مصطفى) إلى الصالة وابتسامته تعلو وجهه وكأنه لم يكن على وشك الانفجار منذ لحظات:

ـ إنها المرة الأولى التى تدخلين فيها البيت منذ رحيل (عمر)، أهلا بك يا بنيتى فى بيتك من جديد.

شعرت (أمينة) بالهدوء:

ـ أشكركم جميعا على هذا الاستقبال الذى لا استحقه، لكن طمئنونى أولا، فيما كان الصوت العالى يا عمى.

ـ لا شيء يا بنيتى، لا تخافى.

نظرت (أمينة) إلى (معتصم) مستفسرة:

ـ ما الأمر يا (معتصم)؟

نظر (معتصم) إلى أبيه:

ـ الأمر بسيط يا (أمينة) لا تشغلى بالك.

تدخلت (سيلة) فى الحوار:

ـ إنه الأمر الوحيد الذى يثير عواصف هذا البيت.

هزت (أمينة) رأسها بتفهم:

ـ إذن هو أمر (شيماء) من جديد.

قال (معتصم) بنبرة يائسة:

ـ وهل هناك موضوع غيره؟

اقتربت (أمينة) من (مصطفى)، نظرت إلى عينيه مباشرة بحزن قاصدة التأثير عليه:

ـ بالله عليك يا عمى، لا تحرم قلب محب من حبيبه، كفاك الله شر فراق الحبيب، إنه يكسر الفؤاد ويسلب الروح، يترك الإنسان مجرد جسد خاوٍ من كل شيء حتى روحه.

سالت دموعها على خديها وهى تتحدث، فتوقفت عن الكلام، نظر إليها (مصطفى) بأسى، ولم يجد شيئا يضيفه، جلس إلى أقرب مقعد، بعد لحظات رفع بصره إليها، يتأمل ملامح الحزن التى حفرت علاماتها على وجه (أمينة).

قطع الصمت صوت طرقات جديدة على الباب، ذهب (معتصم) ليفتح فوجد (دهيبة) أمامه، صرخ من السعادة وارتمى فى حضنها.

(٣٦)

فى شقة (عمر جُلق) جلست (أمينة) فى حضن (دهيبة) وبجوارهما (سيلة)، نظرت (دهيبة) مطولا لـ(أمينة):

ـ أخبريني يا (أمينة)، هل أحزنك موت (عمر)؟

اندهشت (سيلة) أن (دهيبة) فتحت الموضوع بهذا الشكل المباشر، أشارت لها بطرف خفي، لعلها تعيد صياغة سؤالها، لكن (دهيبة) لم تهتم، فى الوقت نفسه رفعت (أمينة) رأسها عن صدر (دهيبة) ونظرت لها فى عجب، بينما (دهيبة) تنظر إلى عينيها بثبات، وكأنها مصممة على سماع الإجابة، أعادت (أمينة) رأسها فوق صدر (دهيبة) من جديد، تنهدت بعمق:

ـ لم أحـزن لفراق (عمر) يـا جدتى فهذا قدرنـا، لكني توجعت، تألمـت، فزعت أنى سـأواجه الحياة بدونه، كنت أحلم أن أسـتند على

يديه فى شيخوختي، لقد تخيلت معه تفاصيل كل شيء فى الحياة، أسماء الأبناء والبنات، أين سيتعلمون، أين سيسكنون، ما هى الوظائف التي سيشغلونها، متى سنحج معا ونزور قبر الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم، حلمنا معا بدروب الحياة التى سنسلك، بنينا آمالا وأحلاما كبارا، لكن كل هذا البنيان تهدم وذرته رياح الفراق يا جدتى، هل فهمتِ الفرق بين حزني وألمي؟

ربتت (دهيبة) على ظهر (أمينة) وقد اطمأنت عليها:

ـ لقد أفزعتني (سيلة) بلا داع، ظننت أن حزنك سيقتلك.

ـ بل صدقت، إنما قاتلي هو الألم، وليس الحزن.

تدخلت (سيلة) فى الحديث:

ـ كلاهما سيان يا بنيتي، يقلقني حالك، وأتمنى أن أراك تشرقين على الحياة من جديد، انفضي عنك الحزن والألم، أنسي أوجاعك، لقد وقع القدر ولا نملك إلا التسليم به، وتذكري أنني أتحدث عن نور عيني وشغاف قلبي، (عمر) لم يكن مجرد ابن بالنسبة لي، بل كان الصديق والسند والحبيب، وحزني عليه لا يمحوه الزمان، لكنى سلمت بقضاء الله، وحسبي أجر الصابرين، لعل الله يغمرنا برحمته ويجمعنا فى رحاب فردوسه.

نظرت لها (أمينة) نظرة صافية:

ـ اللهم آمين، لو أنى اضمن أن ألقاه فى الجنة لسألت الله أن يقبضني الآن بلا تأخير، لكنى سأصبر حتى يحين الأجل فى الموعد المقدر.

ضربت (سيلة) على صدرها وشهقت بجزع:

ـ بعد الشر عليكِ يا ابنتي، رزقك الله عمرا طويلا.

تبسمت (دهيبة) لما لمسته من حب حقيقي تحمله (سيلة) نحو (أمينة)، ونظرت نحو (سيلة) تحدثها:

ـ إذن لم يبقى سبب لوجودي إلا (معتصم).

اعتدلت (أمينة) تحادث جدتها:

ـ لقد تغير (معتصم) تماما يا جدتي، تعلم النوبية وبدأ يتحدث بها، طوال وقته فى المنزل يرتدى «العراجى»، يذهب عدة مرات فى الأسبوع إلى مكتب (عمر) رحمه الله كي يقرأ فى مكتبته الزاخرة بكتب وروايات نوبية، لقد عاد تماما إلى رشده.

تدخلت (سيلة):

ـ لكنه ما زال متعلقا بهذه الفتاة «الجوربتية» ويسعى للزواج منها.

هزت (دهيبة) رأسها فى تفهم:

ـ خيرا إن شاء الله.

أضافت (سيلة):

ـ أخيكِ يسيطر عليه العناد، ولن يتقبل بسهولة هذا الأمر على الإطلاق.

أجابتها (دهيبة):

ـ ما عاناه أخى منذ طفولته وشبابه جعل منه شخصية متمسكة بآرائها حد الهلاك.

سألتها (سيلة):

ـ كيف ستتصرف إذن يا (دهيبة)؟

نظرت (دهيبة) إلى (أمينة):

ـ ما رأيك يا (أمينة)؟

تردد (أمينة) قليلا قبل أن تجيب:

ـ عن نفسي لا أجد غضاضة من زواج (معتصم) و(شيماء)، فحرية الحب عندي أعلى من سجن العادات والتقاليد، كما أنه لن يكون الأول ولا الأخير من شباب النوبة الذى سيتزوج من «جوربتية»، وظني أن (معتصم) بعد التغيرات الأخيرة التي أصابته، سيجعلها تميل إلينا ولن تجعله يميل عنا.

أطرقت (دهيبة) تزن كلمات (أمينة) وتفكر فى منطقها، فى الوقت الذى تعلَّقت نظرات (سيلة) بها فى انتظار رأيها، ولما طال صمتها بعض الشيء، استحثتها (سيلة) على الكلام:

ـ ها؟ ما رأيك يا (دهيبة)؟ ما الذى بيدنا أن نفعله.

نظرت لها (دهيبة) بثقة وهى تقول:

ـ دعوني أتحدث مع (معتصم) أولا، ثم أخبركم رأيي، لعل الله يحدث فى الأمر خيرا.

أومأت (سيلة):

ـ سأصعد إليه وأخبره برغبتك فى الحديث معه.

ـ سأنتظره.

قامت (سيلة) ولم تنس أن تقبل جبين (أمينة) قبل أن تصعد إلى شقتها لتخبر (معتصم) برغبة عمته فى الحديث معه، حين دلفت إلى الشقة وجدت باب غرفة (معتصم) مفتوحا، ورأته يقف أمام المرآة يصفف شعره مرتديا ملابس الخروج، فسألته:

ـ إلى أين فى هذا الوقت يا ولدى؟

ـ كنت سأنضم إليكم لأتحدث إلى عمتي (دهيبة).

تبسمت (سيلة) حتى بدت نواجذها اللؤلؤية، فتعجب (معتصم) وسألها:

ـ فيم ابتسامتك يا (أم عمر)؟

ـ لأن عمتك أرسلتني؛ كى أخبرك أنها تريد التحدث معك لبعض الوقت.

تبسم (معتصم) لهذه المصادفة:

ـ دائما كانت وستظل عمتى (دهيبة) أكثر من يفهمنى فى هذه العائلة التى تستحق التأمل.

ـ أخبرنى إذن، هل نزولك إلى عمتك يستدعى كل هذا التأنق يا فتى؟

هز (معتصم) كتفيه فى لا مبالاة:

ـ وما الجديد فى هذا؟ تعرفين أكثر من غيرك حرصى على التأنق فى كل وقت، حتى لو تحدثت عبر الهاتف.

قهقهت (سيلة):

ـ صدقت، أذهب إذن إلى عمتك.

ـ حالا.

ـ سأنتظرك لتخبرنى بنتائج هذا الحديث.

هز رأسه بالموافقة وانصرف.

دلف (معتصم) إلى شقة أخيه فاستقبلته (دهيبة) بترحاب شديد، نظرت نحو (أمينة) وفى ود:

ـ ألم تلاحظي أنى لم أشرب شيئا منذ جئتكم؟ متى تعلمتم البخل يا (آل جُلق)؟

شعرت (أمينة) بالحرج، لكنها تفهمت أن (دهيبة) ترغب فى الانفراد بولد أخيها، فقامت نحو المطبخ، وهى فى الطريق سألت جدتها:

ـ ماذا تشربين يا جدتى؟

ـ شاى بالحليب، ألا تذكرين مشروب جدتك المفضل.

تبسمت (أمينة) واستمرت فى طريقها نحو المطبخ، فالتفتت (دهيبة) نحو (معتصم):

ـ ما الأمر يا فتى؟ لماذا تثير المشاكل مع أبيك؟

بدا (معتصم) وكأنه يدافع عن نفسه:

ـ يا عمتى أنا لا أثير أى مشكلات، ورغم أنكم تصمونى بالطير الشارد، إلا إنني طوال عمرى كنت حريصا على عدم إثارة المشاكل.

تبسمت (دهيبة) وأمعنت النظر إلى (معتصم):

ـ دعك من هذا يا فتى، وتحدث فى صلب الموضوع فلا داع للمراوغة وأنت تتحدث معى.

شعر (معتصم) بشيء من الخجل فآثر الصراحة والمباشرة:

ـ حتى لا تظنين منى المراوغة، أنا لن أتنازل عن رغبة الزواج من (شيماء)، فليكن حديثنا من هذا المنطلق حتى نصل إلى نتيجة.

حرصت (دهيبة) على الهدوء وهى تسأله:

ـ ولماذا لن تتنازل عن الزواج منها؟

أجابها مباشرة:

ـ ببساطة لأني أحبها.

نظرت له قليلا ثم سألته:

ـ هل تظن يا ولدى أنى قد أحيد يوما عن الحق؟

أجاب بسرعة:

ـ معاذ الله يا عمتى.

ـ إذن سأحدثك بكل صدق وصراحة، أبوك لن يقبل زواجك من هذه الفتاة بسهولة، وعاداتنا وتقاليدنا تحكمه فى هذا الأمر، وأنت تقول إنك لن تتنازل عن حبك هذا، أخبرني إذن من وجهة نظرك، كيف يمكن أن تُحل هذه المسألة؟

رأت ملامح الحيرة على وجهه:

ـ لو أنى أعرف حلا لاتبعته منذ زمن يا عمتى، لهذا أنا أتحدث معك الآن علَّك تساعديني فى الوصول إلى حل.

وضعت (دهيبة) يدها على يد (معتصم):

ـ لو أن القرار بيدى لما وافقت، تخيل أن أباك الذى غادر النوبة القديمة بعمر الرابعة عشر، ثم أتى إلى القاهرة بعدها بأربع سنوات، أى أنه عاش بعيدا عن النوبة أربعة وأربعين عاما، وهو يرفض هذا الزواج، فما بالك بي وقد عشت عمرى بأكمله فى النوبة؛ حتى بلغت الثالثة والستين؟ هل تظن أنى أوافق؟

بدا الأسى على وجه (معتصم):

ـ لماذا تصعبين على الأمور يا عمتى؟

هزت رأسها بالنفي:

ـ أنا لا أفعل يا ولدى، أنا فقط أبسط الصورة أمامك كاملة حتى تتفهم مواقف الآخرين، مثلما تطلب منهم أن يتفهموا مواقفك.

صمت (معتصم) وشعر ببعض اليأس يتسرب إلى قلبه من موقف عمته فقد كان يظنها داعمة له، نظر إليها علها تضيف شيئا فقالت:

ـ اسمع يا ولدى، سأسألك بعض الأسئلة لعل إجاباتك ترشدني إلى حل لهذه المعضلة التي وقعنا فيها.

ـ تفضلى يا عمتى.

نظرت (دهيبة) إلى عينيه وهى تظن أنها تمنعه من المراوغة:

ـ هل ستزور النوبة بعد زواجك كى تتعرف زوجتك إلى أهلك؟

هز رأسه بالإيجاب مؤكدا:

ـ بالطبع يا عمتي، فهذا لا جدال فيه.

ـ هل ستعلم أبنائك اللغة النوبية؟

ظهر التصميم فى نبرة (معتصم):

ـ أنا لن أقع فى خطأ أبى وأترك أبنائي ينشئون على الجهل بلغتهم الأم، وما لا تعرفينه أنى بدأت أُعلم (شيماء) اللغة النوبية لتكون هى اللغة الغالبة فى المنزل فيعتادها الأبناء.

تبسمت (دهيبة) لهذه الإجابة.

ـ لقد كنت فى غاية الوضوح والمباشرة فى حديثي معك، فهل كانت إجاباتك على نفس المستوى؟

بادلها (معتصم) السؤال:

ـ وهل شككتِ يوما فى صراحتى؟

تبسمت (دهيبة) من جديد وهى تجيب:

ـ فى الحقيقة كنت طول عمري أرى أن صراحتك تقترب أحيانا كثيرة من حدود الوقاحة.

ابتسم (معتصم):

ـ هل اعتبر ذلك مدحا أم ذما؟

ـ هو كلاهما معا يا (ابن جُلق).

اتسعت ابتسامته:

ـ سأكتفي من هذه العبارة بجزء المدح فيها.

أرادت (دهيبة) أن تعود إلى الموضوع الأساسي فى حديثيهما:

ـ أمك قلقة يا (معتصم)، تخشى أن يحرمها زواجك منك.

ـ صدقيني يا عمتي هذا لن يكون، حتى لو شطح بي شيطاني وتزوجت (شيماء) دون رغبتهم ـ وهذا لن يكون ـ فلن أقاطع أهلي، أو أبتعد عنهم ما حييت، ولو أن هذا سيكون نتيجة زواجي من (شيماء)، سيكون هذا هو الأمر الوحيد الذى قد يجعلني اصرف النظر عن هذه الزيجة.

ـ أخبرني يا (معتصم)، ما هو موقف والديها من هذه الزيجة؟

صمت (معتصم) لثوان يبحث فى عقله عن كلمات مناسبة:

ـ فى الواقع يا عمتي...

ـ تحدث يا ولدى ولا تخشى شيئا، لكن أصدقني القول بلا مراوغة.

احتفظ (معتصم) بتردده:

ـ فى الحقيقة أهلها ليسوا متحمسين لزواجنا.

أرادت أن تتأكد من المعنى:

ـ ليسوا متحمسين أم أنهم رافضين؟

ـ تستطيعين القول أن أباها يقف فى منطقة الحياد الرمادية من هذا الارتباط، وفى النهاية سيوافق إذا أيقن أن فى زواجنا سعادة ابنته.

حثته (دهيبة) على الاسترسال:

ـ وأمها؟

ـ تلك هى العقبة، أمها تقف على نفس الضفة التي يوجد بها أبى، كلاهما رافض وعنيد ومتطرف فى رأيه.

هزت (دهيبة) رأسها تفهما ثم أسندت ظهرها إلى الكرسي، رفعت رأسها وصوتها معا:

ـ أين الشاي بالحليب يا (أمينة)؟

فهمت (أمينة) أن الحوار مع (معتصم) قد انتهى، فجهزت الشاي بالحليب، ودخلت إليهما مبتسمة.

(٣٧)

جلست (دهيبة) مع شقيقها وزوجته فى حجرتهما وعلى وجهها ترتسم ملامح هادئة. بينما أخوها (مصطفى) سكنت وجهه علامات القلق، ولا يستقر فى مكان مما دفع (دهيبة) لتهدئته:

ـ فكر بالمنطق يا (مصطفى) لا بالعاطفة.

نظر لها (مصطفى) ولأول مرة يحادث شقيقته بصوت حاد:

ـ أي منطق تتحدثين عنه يا (أم الطاهر)؟ أنا لا أشم رائحة المنطق فى هذا الحديث، كنت أظن أنك ستنتشلين (معتصم) إلى شاطئنا لكنني أفاجئ بكِ وقد ملتِ لأن تشاركيه السباحة ضد تيار التقاليد النوبية.

تنهدت (دهيبة) فى نفاذ صبر:

ـ اتفق معك أن زواج (معتصم) من (شيماء) يخالف عاداتنا وتقاليدنا، لكنه فى هذه الحالة أخف الضررين.

تعجب (مصطفى) من جملة (دهيبة) فاستفسر منها:

ـ وما هو الضرر الأشد؟

ـ خروج (معتصم) على العادات والتقاليد مع بقائه فى طاعتك خير من خروجه عليكما معا.

جلس (مصطفى) على حافة السرير، وأسند مرفقيه إلى فخذيه، وأراح رأسه على راحتيه، ربتت (سيلة) على كتف (مصطفى):

ـ ليست كل الأمور كما تبدو يا زوجى، (دهيبة) أتت بالحل الذى لم يخطر ببالنا.

نظر لها (مصطفى) متعجبا:

ـ وما هو هذا الحل يا حكيمة؟

تبسمت (سيلة) لزوجها وهدأ صوتها:

ـ ألم تخبرنا (دهيبة) أن والدة (شيماء) تعترض على هذه الزيجة؟

ـ نعم فعلت.

التقطت (دهيبة) طرف الحوار:

ـ إذن سنذهب لطلب يد (شيماء)، ستتعنت أمها وترفض، فتكون أمام ولدك قد استجبت لطلبه على مضض، لكن عواصف الرفض قد هبت علينا من الضفة الأخرى للنهر، فلا يمكن أن يفاتحك مرة أخرى فى هذا الأمر.

نهض (مصطفى) من مجلسه وخطا فى اتجاه النافذة، ثم استدار ليواجهها:

ـ ماذا لو وافقت أمها؟

نهضت (دهيبة) واقتربت من أخيها، وهى تنظر إلى عينيه فى ثقة:

ـ لن تفعل، أنت لا تدركِ عناد النساء.

أشاح (مصطفى) بيده فى ضيق:

ـ ربما تنصاع لضغوط ابنتها مثلما ننصاع الآن لضغوط ابننا، كيف سيكون الموقف حينئذ.

أجابت (سيلة):

ـ ستكون هذه إشارتنا لتقبل هذا الزواج، ستكون الفتاة نصيبه الذى يسره الله له.

صمت (مصطفى) وقد ارتسمت علامات التفكير على وجهه الكهل، ثم أردف وهو يهز رأسه يمينا ويسارا:

ـ ما زال قلبي غير مستريح لهذا الرأي.

* * *

جلس (معتصم) فى صالة المنزل يتصفح إحدى الجرائد بعين نصف مغلقة، حتى يجتذب تركيزه أحد الأخبار، فيعتدل فى جلسته ليصبح أكثر تركيزا فى القراءة، بعد أن انتهى من القراءة، نهض من مجلسه، واتجه نحو حجرة والده، ويطرق الباب، فيأتيه صوت أبيه مؤذنا له بالدخول، فيجد والديه بصحبة عمته، فيشير لأبيه بالجريدة:

ـ اقرأ هذا الخبر يا أبتِ من فضلك:

يتناول (مصطفى) منه الجريدة، وما زال أثر التفكير فى حواره مع (دهيبة) و(سيلة) باديا على وجهه:

ـ أى خبر تقصد؟

أشار (معتصم) إلى مكان الخبر بالجريدة:

ـ هذا الخبر، تصريحات وزير الري.

طالع (مصطفى) الخبر وبدأت علامات الغضب ترتسم على وجهه:

ـ ما الذى يقوله هذا المخرف؟ أبعد أن يمنحنا الدستور حق العودة للنوبة التاريخية يقول أننا سنلوث البحيرة وندمر بيئتها؟ لا بد أن يقال ويحاكم فورا.

ـ ولا بد أن نرد عليه.

مد (مصطفى) يده بالجريدة نحو ولده:

ـ دعنا نستأنف هذا الحوار فيما بعد، فأنا مشغول بحديث هام مع عمتك وأمك.

أومأ (معتصم) وانصرف خارجا، ذهب إلى غرفته وتناول هاتفه ليجرى اتصالا:

ـ ألو، (محمد) كيف حالك؟

ـ أهلا (معتصم)، أنا بخير، لقد كنت على وشك الاتصال بك.

ـ خيرا؟

جاءه صوت (محمد) يشوبه بعض الحزن:

ـ هل قرأت جرائد اليوم؟

ـ هل تقصد تصريحات وزير الري؟

ـ نعم.

اتسم صوت (معتصم) بالجدية:

ـ إنه نفس السبب الذى جعلني اتصل بك الآن.

استفهم (محمد):

ـ وماذا ترى؟

تذكر (معتصم) كلمات أخيه (عمر):

ـ كان (عمر) لديه الحل، دعنا نتقابل ونتناقش.

ـ سأكون فى النادي النوبى بعد ساعة، هل يناسبك؟

ـ نعم، إلى اللقاء.

ـ مع السلامة.

(٣٨)

عاد (معتصم) من النادي النوبى قرابة منتصف الليل وكله عزم على تنفيذ ما اتفق عليه مع باقي الشباب من الأصدقاء فى أقرب وقت ممكن، حينما دلف إلى الصالة وجد أباه يشاهد التلفاز:

ـ السلام عليكم يا أبى.

التفت (مصطفى) إلى ولده:

ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته يا ولدى.

ـ كيف حالك؟

هز رأسه إلى أعلى وأسفل:

ـ بخير الحمد لله، وأنت؟

جلس (معتصم) بجوار أبيه:

ـ سأكون بخير طالما أنت راض عنى.

تناول (مصطفى) جهاز التحكم، وأطفئ التلفاز، ثم ألتفت ناحية ابنه:

ـ أخبرني يا (معتصم)، إلى أي مدى تتمسك بالزواج من (شيماء)؟

لاح شيء من التوتر على وجه (معتصم) حاول السيطرة عليه، لكنه ظل يسكن ملامحه بالرغم من تلك المحاولة، لذا خرج صوته خفيضا، وكأنه لا يرغب فى الحديث فى هذا الموضوع:

ـ أرجوك يا أبى، لقد تحدثنا فى هذا الموضوع مرات عديدة، وتعلم مدى تمسكي بها، واعلم أنى شديد الحرص على عدم تجدد الخلاف بيننا يا أبى، إلى أن يقضى الله أمرا كان مفعولا.

ـ وهل تظن أنى قد أغير رأى؟

نظر (معتصم) إلى أبيه بتمعن علّه يستنتج ما وراء الحديث، فلم يلمح فى عين (مصطفى) إلا بريق ذكاءه:

ـ نعم يا أبى، أظنك تفعل.

ـ ولِمَ؟

صمت (معتصم) قليلا يبحث عن إجابة مناسبة:

ـ حقيقة لا شيء محدد منحنى هذا الظن، ربما كان أملى أن تفعل هو ما جعلني أعتقد ذلك.

نهض (مصطفى) وخطا عدة خطوات، ثم استدار نحو (معتصم):

ـ اسمع يا (معتصم) لن أطيل عليك فى مقدمات لا داعي لها، لقد اتفقت مع أمك وعمتك أننا سنخطب لك (شيماء).

لم يبدو على وجه (معتصم) أي تعبير أو انفعال، ولم يفعل شيئا سوى الصمت، فسأله (مصطفى):

ـ لماذا لم اسمع منك أي تعليق؟ ألست فرحا.

قام (معتصم) من مجلسه وعيناه لا تستقر على شيء:

ـ أبدا يا أبى، بالطبع سعيد، لكن يبدو أنى لا أصدق.

تبسم (مصطفى):

ـ بل صدِّق، وحدد لنا موعدا لزيارتهم.

هرول (معتصم) نحو أبيه ليحتضنه، ويقبل جبينه:

ـ أنت أعظم أب فى هذا العالم.

ثم جرى نحو غرفته، وهو لا يكاد يصدق ما حدث للتو، اخرج هاتفه ثم اتصل بـ(شيماء):

ـ خيرا يا حبيبى، لماذا تتصل فى هذا الوقت المتأخر؟

خرج صوته لهاثا من فرط الفرحة:

ـ لن تصدقي ما سأقوله الآن.

ظهرت اللهفة فى صوت (شيماء):

ـ خيرا؟ ما الذى حدث؟

ابتلع (معتصم) ريقه، والتقط أنفاسه قبل أن يجيب:

ـ لقد تحرك الجبل، لقد وافق أبى.

ـ أحقا؟ أرجوك يا (معتصم) لا تمزح.

ـ صدقيني يا حبيبتي أنا لا أمزح، لقد طلب أبى أن أحدد له موعدا لزيارتكم لطلب يدك.

فى فرح عارم:

ـ سأخبر أبى حالا، وأبلغك بالموعد.

سارع (معتصم) بالرد:

ـ كلا لا تفعلي.

ترددت (شيماء):

ـ لماذا؟ ألم تقل أن أباك يرغب فى تحديد موعد للزيارة؟

ـ نعم قلت، لكنى سأتصل بنفسي بوالدك غدا صباحا، وأطلب منه تحديد الموعد.

شعرت (شيماء) وكأنها لا تصدق ما سمعت:

ـ (معتصم) هل حقا وافق أبوك؟ أشعر وكأني أحلم.

ضحك (معتصم) وهو يجيبها:

ـ سأقرصك غدا فى المدرسة؛ كي تتأكدي من يقظتك، ومن تحقيق حلمنا.

أجابته ضاحكة أيضا:

ـ أتعرف أنى لن أنام حتى الغد.

ـ أنا أيضا لن أتمكن من النوم حتى الغد.

ردت فى همس:

ـ أراك غدا إذن.

ـ لا إله إلا الله.

ـ محمد رسول الله.

* * *

للمرة الأولى منذ التحق معتصم بالعمل فى المدرسة يصل مبكرا، اتجه مباشرة إلى حجرة المدرسين، فلم يجد أحدا قد وصل بعد، أخرج هاتفه من جيبه، وطلب رقم (شيماء)، أتاه صوتها سعيدا:

ـ يا صباح الفل يا أعز الناس.

ـ صباح السعادة، أين أنتِ.

ـ على بعد أمتار من باب المدرسة.

أسرع (معتصم) نحو الباب ليستقبلها، ما أن لمحا بعضهما حتى علت الابتسامة وجهيهما معا، بادرت (شيماء):

ـ ليلة أمس كانت الليلة الأسعد فى حياتي، ولن يضاهيها روعة سوى ليلة زواجنا.

مسك يدها أمام المدرسة للمرة الأولى:

ـ أنا أيضا كنت فى أسعد حالاتي يا حبيبتي، أخبريني، هل يستيقظ والدك مبكرا؟

نظرت (شيماء) فى ساعة هاتفها:

ـ هو الآن يتناول قهوته فى المكتب.

ـ هل اتصل به الآن.

اتسعت ابتسامة (شيماء):

ـ لا تتعجل إلى هذا الحد، هاتفه بعد انصراف الطابور.

اخرج (معتصم) هاتفه ليبحث عن رقم والد (شيماء) وطلبه بالفعل:

ـ ألو، صباح الخير يا «باشمهندس»، (معتصم جُلق) يهاتف حضرتك.

نظر (محمد) إلى ساعته مندهشا من توقيت الاتصال:

ـ غنى عن التعريف يا أستاذ (معتصم)، صباح النور.

ـ أتمنى ألا أكون قد تسببت فى أي إزعاج فى هذا الوقت المبكر.

تبسم (محمد الفقى):

ـ لو أنك تملك سبب قويا للاتصال فى هذا الوقت سأسامحك رغم أنك لم تزعجني على الإطلاق.

ارتفعت دقات قلب (معتصم):

ـ تذكر حضرتك حين طلبت منك أن نحتسى القهوة معا.

نقل (محمد) الهاتف إلى يده اليسرى والتقط قلما ليدون ما قد يراه هاما من مكالمة (معتصم):

ـ بالطبع وما زالت دعوتي لك سارية في أي وقت.

ـ فى الواقع ستشمل هذه الدعوة أشخاص آخرين إذا سمحت.

فتح (محمد) نوتة صغيرة أمامه ليدون هذا:

ـ تشرفونني، لكن هل لي أن اعرف من هم؟

ـ سيكون معي أبى وأمي.

خط (محمد) شيئا ما فى النوتة:

ـ فى هذه الحالة سأتشرف باستقبالكم فى البيت.

ـ سيكون الشرف من نصيبي، متى تسمح لنا بالزيارة؟

صمت (محمد) قليلا كأنه يفكر رغم أنه قد اتخذ قراره فعلا:

ـ دعني أراجع المواعيد المتاحة وسأخبرك بأقربها.

أجابه (معتصم) في لهفة:

ـ سيقتلني الانتظار.

ابتسم (محمد):

ـ أحرص على ألا يفعل حتى تتمكن من الحضور.

ابتسم (معتصم):

ـ في حفظ الله.

ـ إلى لقاء قريب.

بعدما أغلق (محمد الفقى) الهاتف، طلب رقم زوجته الدكتورة (سلوى):

ـ صباح الخير يا دكتورة.

اندهشت (سلوى) من الاتصال:

ـ صباح الخير يا (محمد)، خيرا؟

دخل (محمد) إلى صلب الموضوع مباشرة:

ـ لقد اتصل بي (معتصم) الآن ويطلب موعدا لزيارتنا بصحبة والديه.

صمتت (سلوى) من المفاجأة، فقال (محمد):

ـ هل ما زلتِ معي على الخط يا (سلوى)؟

أرادت (سلوى) أن تتأكد مما سمعت:

ـ نعم نعم معك، هل قلت أنه يطلب الزيارة بصحبة والديه؟

ـ هذا ما قلته بالضبط.

سألت في تردد:

ـ هل وافق والده؟

ـ هذا ما يبدو عليه الأمر.

ـ متى حددت له الموعد؟

أجابها (محمد) في هدوء:

ـ لم أشأ أن أخبره بيوم محدد حتى نتفق معا.

ارتاح صوت (سلوى):

ـ حسنا فعلت، دعنا نتناقش في المنزل لنرى ماذا سنفعل.

ـ اتفقنا، مع السلامة.

ـ إلى اللقاء.

(٣٩)

مساء الخميس التالي، وفى تمام الساعة الثامنة دق جرس باب شقة المهندس (محمد الفقى) الذي نظر إلى ساعته، ورفع حاجبيه في إعجاب وهو يقول لزوجته (سلوى):

ـ يبدو أن (معتصم) مصمم على نيل الإعجاب، لقد أتى في الموعد تماما دون تأخير.

ـ بالطبع هذا سلوك يحترم، لكنه لن يؤثر على تقديري للأمور.

في هذه اللحظة ذهبت (شيماء) لتفتح الباب لكن أمها نادتها:

ـ (شيماء)، إلى أين أنتِ ذاهبة؟

ردت (شيماء) في براءة:

ـ سأفتح الباب يا أمي.

أشارت لها في حزم:

ـ بل أدخلي إلى غرفتك، سيفتح والدك الباب ويستقبل الضيوف.

ظهر شيء من التبرم على وجه (شيماء) لكنها انصاعت لأمها، وقام (محمد) لفتح الباب:

ـ أهلا وسهلا، تفضلوا.

ابتعد (معتصم) عن الباب ليسمح لوالده أولا بالدخول، ثم أمه ثم أمينة التي لم ترتدي الأسود للمرة الأولى منذ وفاة (عمر)، قادهم (محمد) مرحبا إلى حجرة الصالون:

ـ تفضلوا، خطوة عزيزة.

تبسم (مصطفى) لهذه المقابلة اللطيفة:

ـ أعز الله مقدارك يا أستاذ.

جلسوا جميعا وعلى كل الوجوه ابتسامات، بادر (معتصم) موجها حديثه إلى (محمد الفقى)، ومشيرا نحو أبيه:

ـ أبى الحاج (مصطفى جُلق)، موظف سابق بمصلحة الضرائب، وحاليا بالمعاش.

ثم أشار نحو أمه:

ـ والدتي الحاجة (سيلة) ربة منزل.

استأنف (معتصم) حديثه مشيرا نحو (أمينة).

ـ الأستاذة (أمينة الطاهر) محامية، زوجة أخي الأكبر (عمر) رحمه الله.

همس الجميع بالرحمة على روح (عمر)، ثم قال (محمد) مرحبا:

- يا أهلا وسهلا بأفاضل الناس، تشرفنا، أسمي (محمد الفقى) مهندس، والد (شيماء).

ربت (مصطفى) على صدره مبتسما:

- تشرفنا يا «باشمهندس».

دخلت عليهم (سلوى)، وعلى وجهها ملامح حيادية، سلّمت على الجميع، وتبادلوا التعارف السريع، وعبارات المجاملة القصيرة، جلست وهى تتأمل (معتصم) والصمت يسود المكان لمدة دقيقة، ما أشعر (محمد) بالحرج من هذا الصمت فتبسم:

- شرفتونا، مرحبا بك يا (معتصم).

نقل (معتصم) بصره من (سلوى) إلى (محمد):

- شرفني لقاؤك يا عمى.

قطع (مصطفى) هذا الحرج:

- يا أستاذ (محمد)، أظنك تعلم سبب زيارتنا لكم الليلة.

أجاب (محمد) مجاملا:

- تشرفني زيارتكم لأي سبب يا حاج (مصطفى).

تبسم (مصطفى):

- أعزك الله، نحن هنا اليوم لنطلب يد ابنتنا (شيماء) لابننا (معتصم).

- طلبكم على العين والرأس يا حاج.

هنا تدخلت (سلوى) موجهة حديثها نحو (معتصم):

ـ علمت أنك تعمل محاسب في نفس المدرسة التي تدرس فيها (شيماء).

ـ نعم يا دكتورة، هذا صحيح.

جاء صوتها يحمل رنة تحدى:

ـ هل لديك شقة يا أستاذ (معتصم).

شعر (مصطفى) بنبرة هجومية في حديث (سلوى) ما طمأنه إلى نجاح خطة (دهيبة)، لكنه تدخل منقذا ولده من الحرج، موجها حديثه إلى (محمد الفقى):

ـ شقته موجودة فعلا يا «باشمهندس»، في حي عابدين قريبا من منزلنا.

أعادت (سلوى) توجيه دفة الحديث:

ـ كم مساحتها يا حاج (مصطفى)؟

ـ مائة متر، ثلاث غرف وصالة ومطبخ وحمامين.

تدخل (محمد) للتلطيف من حدة حوار زوجته:

ـ عظيم.

انتبهت (أمينة) أيضا لمحاولة الدكتورة (سلوى) من إحراج (معتصم) فابتسمت موجهة كلامها لها:

ـ ألن نتشرف بلقاء العروس يا دكتورة (سلوى)؟

دون تعليق نهضت (سلوى) متوجهة نحو غرفة (شيماء) لتناديها، حين دخلت عليهم قامت (أمينة) ترحب بها بابتسامة صافية، ووجه بشوش، احتضنتها وقبلتها في وجنتيها و(شيماء) ترتسم على وجهها ابتسامة السعادة، ثم سلمت على (سيلة) واحتضنتها وقبلتها أيضا، اتبعت ذلك بالسلام على (مصطفى) واكتفت بالابتسام (لمعتصم) ثم جلست، وقالت (سيلة):

ـ بسم الله ما شاء الله، قمر ١٤ يا بنيتي.

خجلت (شيماء) من هذا الإطراء فنظرت أرضا:

ـ شكرا لحضرتك.

عادت (سلوى) مرة أخرى لنبرتها المتحدية:

ـ أخبرني يا (معتصم) كيف ستقوم بتجهيز الشقة؟

نظر لها (معتصم) نظرة فيها شيء من الحدة والصرامة:

ـ في الواقع يا دكتور، لدى مدخرات تكفى لزواجي وزيادة، لكن هناك أمر هام لم يسمعه منى أحد من قبل ويهمني أن أخبركم به جميعا.

انتبه الجميع على أثر هذه العبارة، ليستطرد (معتصم):

ـ في خلال عامين من الآن سأنتقل بشكل كامل ونهائي للحياة في النوبة.

ظهر الامتعاض على وجه (سلوى) والمفاجأة على ملامح (شيماء) في حين اعتدل (محمد) في جلسته متنحنحا حرجا، بينما نظر (مصطفى) نحو ولده غير مصدق، وكذلك فعلت (سيلة) و(أمينة)، وكانت (شيماء) أول المعلقين:

ـ ما الذي تقوله يا (معتصم)؟

نهض (معتصم) بثقة:

ـ سأعود إلى النوبة يا (شيماء) وكي أكون أكثر تحديدا، سأعود إلى النوبة القديمة، على ضفاف البحيرة.

نهضت (سلوى) في عصبية:

ـ هذا لن يحدث أبدا، ابنتي لن تسافر معك، ولو صممت على هذا الرأي، فاعتبر طلبك مرفوض من الآن.

وقف الجميع مندهشين من هذا التطور السريع للأحداث، وأكثر من سيطر عليه الشعور بعدم التصديق كان (مصطفى) ثم تدخلت (شيماء):

ـ ماما من فضلك.

ثم وجهت حديثها إلى والدها:

ـ أبى إذا سمحت لي، أريد أن أجلس مع (معتصم) قليلا من فضلك.

تدخلت (سلوى):

ـ أنا لا أوافق يا (شيماء)، الأمر محسوم.

حاولت (شيماء) السيطرة على انفعالاتها:

ـ من فضلك يا أمي، هذه لحظة مصيرية يترتب عليها الكثير؛ لذا أرجوكِ دعيني أدير حياتي.

سيطر الحرج والصمت على الجميع، حتى كسرت (أمينة) الصمت:

ـ اسمحوا لي، من فضلك يا (شيماء) تعالى نتحدث سويا في غرفتك.

ودون أن تنتظر إجابة، تأبطت ذراع (شيماء) وتوجهتا نحو غرفتها، انصرفت (سلوى) غاضبة إلى حجرتها دون أن تستأذن منهم، نظر (محمد) إلى (مصطفى) والعرق يتفصد من جبينه حرجا، حاول أن يبتسم فجاءت ملامح وجهه لا تشي بشيء:

ـ تفضلوا، تفضلوا، اجلس يا حاج (مصطفى).

بادر (معتصم) بالحديث متوجها به إلى (محمد):

ـ هل تسمح لي يا عمى أن أشرح لك وجهة نظري.

لم يجد (محمد) ما يجب به، فاكتفى بهز رأسه فقط، مما فهمه (معتصم) إيجابا:

ـ منذ أقل من عام واحد لم أكن أحب أصولي النوبية السمراء، ولم أفكر يوما أن أتحدث النوبية، أو أن أذهب هناك سوى للزيارة التي أتعجل فيها عودتي للقاهرة، باختصار كنت نبته بلا جذور يمكن لأي شيء أن ينتزعني من أرضى، حتى رحل أخي وصديقي (عمر) من أجل أن يحتفظ بهذه الجذور التي كنت أنكرها، سببت وفاته صدمة كبيرة، ليس لي وحدي، ولكن لنا جميعا، كنت غاضبا أشد الغضب، وأردت أن أفهم السر وراء موته، لماذا أفنى عمره، وترك وراءه زوجة محبة يقطر قلبها دما إلى الآن لفراقه، حينها قررت أن أخلو إلى مكتب (عمر) كل يوم وطالعت عشرات الكتب التي أخبرتني أن جذري

الذي لا أرغبه، كان يجب أن أفخر به، تسربت دماء (عمر) النوبية إلى شراييني فأصابتني بالهوس نحو أصلى الذي طالما هربت منه.

صمت (معتصم) قليلا حينما لمح إلتماع الدموع في عيني (سيلة)، لكن (مصطفى) ربت على ظهره في حنو بالغ وهو يعلق على كلمات ولده:

ـ أكمل يا ولدى، كلى شوق أن اسمع.

توجه (معتصم) هذه المرة بحديثه إلى أبيه:

ـ أتذكر يا أبى رحلتنا إلى الأخيرة إلى النوبة، حينما كنا على ظهر المركب طلب منى (عمر) أن أفتح قلبي، أن أترك مشاعري تتصل بأرض النوبة، وقد فعل (عمر) ذلك معي بعد رحيله، كان السبب أن ينفتح قلبي، وتتصل مشاعري بالنوبة، فتعلمت النوبية، والتزمت بالزى النوبي، على الأقل في المنزل.

استدار (معتصم) ليواجه (محمد):

ـ لهذا يا عمى، أرغب أن يولد أبنائي هناك؛ حتى لا ينسيهم الشتات جذورهم، ولا أتصور أنى أنجب أبناء إلا من (شيماء)، فهل ترفض طلب رجل يتمسك بأصوله ويحترم جذوره؟ أرغب أن أحقق حلم يراود كل نوبي منذ لحظة التهجير وحتى اليوم.

شعر (محمد) أنه في مأزق كبير، لا يدرى كيف يتجاوزه، لكنه أجاب بحنكة:

ـ صدقني يا (معتصم) أنا احترمك كثيرا، واحترم رغبتك في تحقيق حلم العودة، وهو بالطبع حلم مشروع.

خرجت (شيماء) و(أمينة) وعلى وجه كل منهما ابتسامة صافية، غمزت (أمينة) لـ(معتصم) فترتسم على وجهه ابتسامة أيضا، ينهض ناظرا نحو (شيماء) التي تقترب منه:

ـ أخبرَتني (أمينة) أن المنظر على ضفاف البحيرة ساحر، هل هذا صحيح؟

ابتسم (معتصم):

ـ أرجو أن تحكمي بنفسك.

العودة

(٤٠)

تساقطت دموع (أمينة) على خديها العجوزين في صمت وهى تجلس على الشاطئ، وتمسك بيدها صورة لرجل لم تستطع السنون أن تمحوه من ذاكرتها، رجل لولاه ما جلست الآن في هذا المكان، رجل ملأ حياتها وقلبها وعقلها صخبا وحبا وأملا، ثم رحل مخلفا وراءه حلم، تحقق بعد سنين من رحيله.

نظرت (أمينة) إلى مياه البحيرة تتأملها بفخر، كانت المحامية التي حركت الدعوى ليتحول اسم البحيرة من (بحيرة ناصر) إلى (بحيرة النوبة)، أعادت النظر إلى صورة (عمر) تتأمل ملامحه التي غابت عن الوجود منذ ما يزيد على ستة عقود، لكن تأثير جهوده ما زال ممتدا إلى الآن، قبلتها بشفتيها العجوزتين، ضمتها إلى صدرها، أخرجت من حقيبتها كيس (آشريا) الأبيض وأفرغت ترابه في يدها، قربت يدها من فمها ثم تمتمت وكأنها تتلو صلاة ما، أو أنها كانت تقبله،

ثم تركت الهواء يحمل التراب بخفة لينشره في كل مكان، ابتسمت حينما طارت ذراته فى الهواء، فأسندت رأسها التسعيني إلى الكرسي الذي تجلس عليه، ثم أغمضت عينيها أخيرا.

تمت بحمد الله

محمد فاروق الشاذلى

تذييل

اكتشفت ذات يوم أننا ـ كمصريين ـ لا نعرف بعضنا البعض، ننفتح على العالم وثقافاته فنعرف عنه الكثير، ولا ننفتح على أنفسنا ولا نعرف شيئا عن باقي المصريين، فلا نعرف شيئا عن أهل سيناء أو مطروح أو النوبة أو.. أو..

فأردت أن أجعل من هذه الرواية تعارفا بين أبناء وطن لا يعرفون بعضهم البعض، هذه الرواية مجرد الشرارة الأولى ودورك أن تشعل أنت نيران المعرفة، مجرد سهم يشير إلى الطريق، وعليك أنت أن تسير فيه.

القاهرة فى ٢٠١٥/٠٨/١٧

شكر واجب

زوجتي الحبيبة وأبنائي الأعزاء أشكركم جزيل الشكر على دعمكم الدائم وصبركم وتشجيعكم، لولاكم ما حققت شيئا فى حياتي أبدا.

صديقي العزيز وأخي الحبيب النوبى الجميل/ عمر عصام لك مني خالص الشكر وبالغ التقدير.

الأستاذ الخلوق «الموسوعة النوبية»/ مصطفى الشوربجي ملاحظاتك أثرت العمل فلك مني الشكر والتحية.

أخي وصديقي الصدوق الكاتب/ محمد الجيزاوى خُلقت الأحلام كى تتحقق، وها نحن نتشارك تحقيق الأحلام.

أسرتي الرائعة أسرة دار دون أنتم كنز أهدانيه الله عز وجل، لكم خالص المحبة وعظيم التقدير.

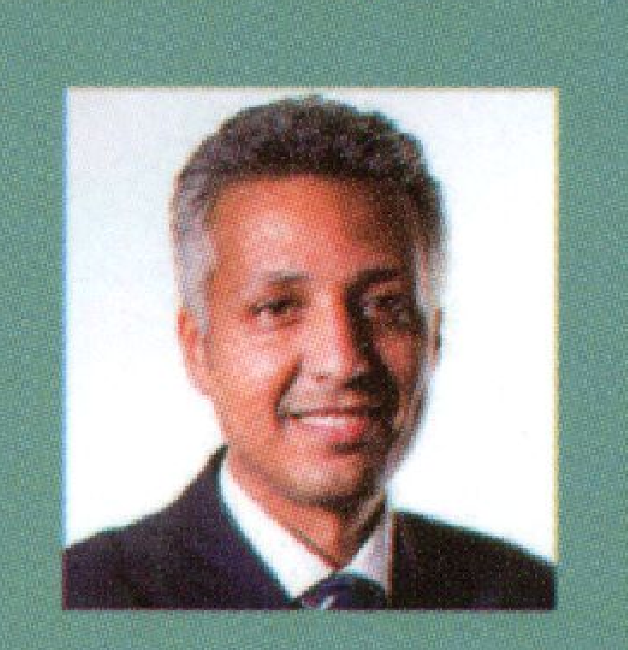
سِيرَةُ التُرابْ

أحفاد الحاج " أحمد جُلق" جاؤوا من بلدة بعيدة لا يعرفون شيئا عن العاصمة وما فيها من هوس وصخب .. جدتهم احتفظت بسيرة أرضهم وأصلهم للزمن وللأحفاد وللقضية .. غير أن الأحفاد انقسموا على تاريخ بلدتهم البسيطة الجميلة .. اختلفوا على تراثها .. تاهوا في زحمة العاصمة ووهج مصابيح الفاترينات الزئبقية .. أحفاد الحاج " أحمد جُلق" تغيروا ، لكن الجدة التي احتفظت لهم بالسيرة والأرض ظلت دماؤها تسري في العروق ، أصبحوا مختلفين في الهيئة ومجتمعين في رابطة الدم ، ولكن في العاصمة الدم وحده لا يكفي ..

إنها رواية حالمة وباعثة للأمل ، تنتصر للتاريخ المسكوت عنه ، وتحكي سير الطيبين ، وتفصح عن حكايات الأرض الممتلئة بالسحر والخيال

رواية كُتبت بقلم يعرف كيف يبحث في التاريخ وكيف يكتشف خبايا الزمن وينفض الغبار عن الماضي

الناشر



محمد فاروق الشاذلي

كاتب مصري ، تخرج في كلية الحقوق جامعة القاهرة 1999

عمل كمعد ومذيع براديو أرابيسك وقدم برامج "استوديو أرابيسك - اعمل الصح - حبة ثقافة"

، فاز فى مسابقة القصة القصيرة لاتحاد الكتاب (دورة الراحل عبد المنعم شلبي) ونشر العمل الفائز ضمن كتاب "اللعبة" .. صدر له المجموعة القصصية "ذكريات للبيع" .. صدر له رواية بوليسية بعنوان " ڤيچينير"

تصميم الغلاف كريم آدم


ISBN 978-977-6426-88-7

